الفصل الرابع
دور الوزراء فى الحياة العمرانية والأدبية

- الوزراء والحياة العمرانية.
- الوزراء وتحصين المدن.
- دور الوزراء فى الأدب.

obeikandl.com

obeikandl.com

الوزراء والحياة العمرانية:

كان للرخاء الذي عم بلاد افريقية الحفصية في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم أثر كبير في قيام نهضة عمرانية راقية تشهد عليها الآثار العمرانية التي وصفها المؤرخون والرحالة في كتاباتهم، حيث بلغت الهندسة والعمارة أوج عظمتها بسبب وجود العمارة المحلية داخل افريقية، وما هو مستورد من بلاد الأندلس وما خلفه هذا التنافس في هذا المجال[١] الذي ما تزال آثاره قائمة حتي الآن[٢] تشهد علي حضارة وقت ذلك العصر وأحيطت بالبعض مظاهرة الاحيلة[٣].

ومنذ قيام الدولة الحفصية، شارك سلاطين ووزراء الدولة الحفصية في انشاء نهضة عمرانية متقدمة، بل كان للوزراء دورًا وفضل لا ينكر في هذه النهضة. حيث نعم معظم الوزراء المتبدين بالتراث العريض والحياة المترفة والإسراف[٤] وتنوعت المنشآت العمرانية ما بين مساجد ومدارس وزوايا وأربطة وحصون ومدن وغيرها.

بناء المساجد

اهتم الوزراء الحفصيون ووزرائهم ببناء المساجد الجديدة واهتموا ايضًا بترميم وتجديد المساجد والجوامع القديمة واصلاحها وتزويدها باحتياجاتها

(١) برنشفيك: المرجع السابق:ج٢، ص٤٣٤ – ٤٣٥

(٢) المطوي: السلطنة: ص ١٥٨، الدولاتي: مدينة تونس: ص١٤٩

(٣) الزركشي: المصدر السابق: ص٢٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص٨٠١

(٤) ابن خلدون: العبر، مجا، ج١٢، ص٦٣٠، الزركشي: المصدر السابق: ص٢٥، ابن القنفذ

حفاضًا علي القيمة الفنية والتاريخية والدينية لهذه المساجد[١] فكان الاهتمام ببناء المساجد موضوع اهتمام منذ نشأة الدولة الحفصية، حيث أمر السلطان أبو زكرياء الأول الحفصي وزرائه في عام ٦٢٩هـ / ١٢٣٠م بالبدء في بناء جامع القصبة بتونس، قام بأمر وزرائه بترميم وتجديد القصبة، وأمر ببناء صومعته ترمية البناء والإنشاء[٢] وانتهي من بناء المسجد الجامع سنة ٦٣٣ هـ وكان أول من أذن فيه عندما انتهي من بناء الصومعة في نفس عام الانتهاء من بناء المسجد الجامع(٣) وكانت أعمدة هنا الجامع ورخامة الجميلة جليت من جامع منزل باشو بالوطن العيلي(٤) ولم يكن أبو زكرياء الحفصي أول سلطان حفصي يهتم ببناء المساجد فقط فقد سبقه الأمير محمد بن عبد الواحد الحفصي ببناء مسجد جامع عام ٦٠٦هـ عرف بمسجد القصبة وزودوه بمئذنة مربعة الشكل ولا يزال المسجد قائمًا حتي يومنا هذا ومعروف باسم جامع ابي محمد لشعيه الي محمد الحفصي(٥) وأمر السلطان أبو زكرياء الاول ببناء المصلي خارج باب المنارة وجعل له ابراجًا وشرائف كأنه بلد صغير، وقدرت مساحة المصلي بمساحة مدينة بنزرت(٦) وظل هذا الجامع موضع اهتمام جميع السلاطين

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٦، ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٦، المطوي: السلطنة، ص١٥٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٢٦ ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٦، جوليان: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٨ -wilfrid knapp, op cit, p.٥٧

(٣) الدولاتلي: المرجع السابق، ص١٥٠

(٤) الزركشي: المصدر السابق: ص٢٧٠:٢٦٠

(٥) العمري: وصفة افربقية،ص ٢٢٧

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٢٥، المطوي: السلطنة، ص١٥٨

والوزراء من بعده حيث أمر السلطان المستنصر وزراءه عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ببناء المنصورة بالجامع الأعظم[١] كما أجري الحياة العذبة الي الجامع من أجل السقية والوضوء[٢] وفي عهد السلطان المستنصر أمرت الأميرة عطف والده السلطان الوزراء ببناء جامع التوفيق أو جامع الهواء[٣] فكان موضوع بناءه داخل الكتل السكانية للحضرة التونسية[٤].

واستمر السلاطين العظماء ووزراؤهم في عمليات بناء المساجد بتونس حيث نجد السلطان الواثق من المستنصر بأمر وزراءه ببدأ عمليات الترميم والإصلاح لجامع الزيتونة، كم أمرهم بوضع أفضل كسوة لهذا الجامع وذلك يوم الخميس الخامس عشرة من شعبان عام ٧٧٦هـ، وكان الوزير المستبد ابن الحير هو المشرف علي عملية البناء لأنه هو المسيطر وصاحب الكلمة في عهد هذا السلطان الضعيف[٥] كما ينسب له ولوزرائه بقاء مسجد باب الدرب[٦] كما اهتم الواثق ووزراؤه بالاهتمام بجميع مساجد الدولة الحفصية بعمليات التجديد والترميم لها وصيانتها[٧] وعندما استولي الدقي ابن ابي محارب علي الحكم لم يكن أقل اهتمامًا ببناء المساجد عن غيره

(١) ابن الشماع: المصدر السابق: ص ٦٤، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧، ابن دينار: المصدر السابق الحويني ص ١٥٦

(٢) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٥، ابن الشماع: المصدر السابق: ص٦٨

(٣) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص٢٠٥، برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٨٠

(٤) الدولاتلي: المرجع السابق، ص٤١

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤١، جوليان: تابع افرقيا الشمالية، ج٢، ص ١٩٣

(٦) الجزائرلي: المرجع السابق، ص ٣٢٩

(٧) المصدر السابق، ص ٤٢

من السلاطين السابقين فأمر وزراءه ببناء جامع للخطبة[١] وهو جامع باب البحر يعدان أمرهم يهدم الفندق الذي تباع فيه الخمور وبناء الجامع مكانه وذلك في ١٩ صفر عام ٦٨١هـ[٢] في عهد السلطان ابي يحي ابي بكر حيث أمر وزراءه بتجديد الكتابة التي بالأزورد في قبة جامع الزيتونة، فأصبحت أكثر جمالًا وروعة عن من ذي قبل، مما أضاف علي القبة عظمة وشماخة وروعة فنية[٣].

أمر السلطان أبو زكرياء يحي الواثق ووزراءه بالشروع في بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد[٤] ومن مبدأ الاهتمام بالواقع أمر السلطان أبو العباس أحمد وزراءه بإقامة القراءة بالأسبوع بالمنصورة نمزي جامع الزيتونة وأوقف عليه وقفًا مؤبدًا[٥] وأمر السلطان أبو العباس أحمد ووزراءه بناء علوة الكبير بزتقة بن عبد السلام قبالة باب اليهود جوني الجامع الأعظم ليصوم به رمضان كل عام[٦].

وهذا يتبين لنا مدي اهتمام السلاطين الحفصيين بالتحصينات العمارية للمساعد الحفصية سواء بالتجديد أو البناء أو الصيانة أو اضافة المكتبات للجوامع[٧] فقام أبو زكرياء ابي اسمان ووزراؤه بتوسيع جامع الخطبة بمدينة

(١) المصدر السابق، ص ٤٧، ابن دينار: المصدر السابق: ص١٦٢

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٧

(٣) ابن وبتار: المؤش، ص ١٧٢، ابن الشماع: المصدر السابق، ص ١٠٦

(٤) ابن الشماع: المصدر السابق، ص ٧٤

(٥) المصدر السابق، ص١١٠، ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٣

(٦) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٣

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥١، العمري، وصف افريقية،ص٢٥، التجاني، الرحلة، ص ٢٧٤ – ص ٢٧٥

قسطنتينية واصلحه وحدوه مما جعله تحفة معمارية نشهد علي تفوق الحفصيين في المجال المعماري وقد اشتري الديار التي بجواره من أجل اتمام عملية توسيع هذا المسجد[١] كما حدد السلطان أبو يحيي زكرياء اللحياني كبير الوزراء الأسبق أبواب جامع الزيتونة الداخلة وجعلها من الخشب الساج وذلك في رمضان عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م[٢] وكانت عمليات البناء والترميم تحت إشراف الوزراء والسلاطين فلا بد من وجود أحد الوزراء للإشراف علي عمليات البناء ونقل خطوات عملية البناء إلي السلطان الحفصي[٣] واستمرت عمليات تشييد وتطور المساجد في الفترات الذهبية للدولة الحفصية وسلاطينها العظماء ووزرائهم، حيث أمر السلطان أبو عمرو عثمان ببناء ميضاء للوضوء بدرب عبد السلام بحوضي الجامع[٤] وذلك في أوائل رجب عام ٨٥٤ هـ، ١٧٠٢م[٥] وأمر بتسخين الماء فيها في أيام الشتاء الباردة حتي يشجع الناس للذهاب إلي المساجد[٦] كما أمر وزراءه بالإشراف علي ميناء مسجد بعيد الزميين بين باجة وتونس، وجامع آمر بالتباين من ربض السويقة[٧] وكذلك أمرهم ببناء مسجد للصلاة بزقته سيدي محرز بجوار

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٨

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٦٣،

(٣) المقري: نصح الطيب

(٤) ابن ابي الضياف: المصدر السابق: ص٢٣٦، الزركشي: المصدر السابق: ص١٤٤

(٥) الزركشي: المصدر السابق: ص١٤٤

(٦) المصدر السابق، ص ٢٣٦،٢٣٧، الزركشي: المصدر السابق: ص١٤٤

(٧) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣٦ – ٢٣٧

المدرسة[١] أمر السلطان أبو عبد الله الحفصي وزرائه ببناء المقصورة بصحن الجنائز من جامع الزيتونة المعروفة بالعيدلية لسينة إلي كتيبته[٢] وهنا نجد أن الاهتمام بالمساجد يرجع معظمه الي عصر السلاطين الأقوياء وزرائهم من حيث عمليات البناء والتجديد والتدريع والترميم والصيانة، وحرص السلاطين العظماء ووزراؤهم علي جعل هذه المساجد منارة للعلم والثقافة وجعلها أفضل طراز معماري تشهد بلاد المغرب علي العكس من فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين حيث وجهت الاهتمامات إلي الصراعات والقضاء علي الفتن والثورات وأهملت المساجد ولم تذكر المصادر سوي الإهمال للعمران، ولم تذكر أنه في فترات الوزراء المستبدين قد تم بناء مسجد أو توسيعه إلا قليل جدًا، فكانت معظم فترات الضعف إهمالًا وتدميرًا وتهدم للحياة العمرانية بالمساجد حتى شكت المساجد لهذا الإهمال، ولم يكن ذلك في البلاد الحفصية فقط بل كان أيضًا.

(١) المصدر السابق ص ٢٣٦، ابن الشماع: المصدر السابق: ص ١٢٢

(٢) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٤١

obeikandl.com

الوزراء وتحصين المدن

الأسوار

كانت للحروب والصراعات للاستيلاء على الحكم فى فترات الضعف دور هام لإقامة الأسوار حول تونس وضواحيها، مما جعل السلاطين ووزراؤهم يسعون لإقامة أسوار حول الأرباض، عندما أمر السلطان أبو عبدالله محمد أبى ضربة وزراءه بحث الناس ببناء جدران قوية على الأرباض من أجل حمايتهم ضد أى عدو خارجى، وبالفعل بدء التنفيذ لبناء تلك الجدران[١] ولكن لم يسعفه هو ووزراؤه الوقت لإتمام البناء كله حتى جاء السلطان أبو الحسن المرينى وأحتل تونس بكل سهولة عام ٧٤٧هـ/١٣٤٧م[٢] فأمر وزراءه بإعادة بناء الأسوار وإحاطة المدينة بخندق وأكمل الجدران التى بدأها من قبله السلطان الحفصى أبو ضربة ووزراؤه وبالفعل كانت التحصينات وأسوار أبي الحسن المرينى قوية وحصينة ومنيعة ولم تفلح محاولات الوزير ابن تافراجين والأعراب باقتحامها، وأصبحت المدينة بأسوارها وخنادقها وقصبتها قادرة على الثبات والتصدى للعدو[٣].

وأمر السلطان أبو اسحاق وزراءه ببناء سور بأرباض تونس ولكنه لم يكتمل[٤] ولم يكن للوزراء المستفيدين بالسلطة دور اقل من السلاطين

(١) الزركشى: المصدر السابق صـ٦٦،ابن خلدون:العبر، ٦،جـ١١ ’صـ٧٥١

(٢) مارمول كربخال: ا فريقيا،جـ٣،صـ٧٥، عبد العزيز الدولاتلى:مدينة تونس العهد الحفصى،صـ٦٢

(٣) ابن خلدون:العبر،صـ٧ ج١٣، ص٥٧٢، الزركشى: المصدر السابق صـ٨٥

(٤) ابن ابى الضياف: المصدر السابق ’ صـ٢٢٧

الحفصيين فنجد الوزير ابن تافراجين عندما سيطر واستبد بالسلطة الحفصية تولى بنفسه تدعيم أسوار الأرباض، وبذل مجهودًا كبيرًا فى سبيل صيانة المنشآت الحربية التونسية وحبس عليها مداخيل الخراج ومحاصيل إيجار معاصر الزيت الموجودة فى الأرباض[١] وأمر السلطان أبو فارس عبد العزيز وزراءه بتحصين السواحل الشمالية والشرقية، إذا جُهزت بعدة تحصينات تهدف إلى تعزيز بعض النقاط الدفاعية كرأس آدار والحمامات وأبى الجعد ورفراف وغيرها من المناطق الدفاعية[٢]. وأمر وزراءه ايضًا بعمل نفس التحصينات فى ضواحى تونس من أجل حماية العاصمة من أى هجومات مسيحية[٣] محتملة كما زودت بأبراج للمراقبة بقرطاج كما قاموا ببناء أبراج مراقبة على شواطئ الخليج منها برج سيدى أبى سعيد لمتابعة تحركات السفن، كما كان هناك دوريات بحرية لمراقبة كل من يقترب من الشواطئ التونسية وكان السلطان أبو العباس أحمد سابقًا لأبى عمرو عثمان وأبي فارس عبد العزيز فى بناء الأبراج حيث امر وزرائه ببناء البرج الذى يقع هو شرقى قرطاجنة للاحتراس من الأعداء الخارجين على لدولة وكذلك القوى المسيحية المجاورة، ورفع التضييف عن قراها عندما يذهب السلطان لهذا المكان[٤] كما أمر أبو عمرو عثمان وزراءه بإنشاء رباطًا من أجل الوافدين،

(١) ابن خلدون:العبر جـ٦،ج١٢،صـ٨٣٧، ابن دينار:المصدر السابق صـ١٧١،ابن الشماع:المصدر السابق صـ١٠٢،ابن الخطيب: رقم المحلل صـ٦٩،٦٧

(٢) الزركشى:المصدر السابق:صـ١١٦

(٣)الدولاتلى: مدينة تونس:ص١٠٦

(٤) ابن دينار: المصدر السابق ص٧٣.ابن ابى الصياف: المصدر السابق صـ ٢٣١، الزركشى:المصدر السابق:صـ١٠٧

وكانت بها حارسه وكذلك تعمير دار للضيوف، ولكن كان هدفها الأساسى الدفاع والعمران البشرى[١] فانتشرت الأبواب بتونس وكذلك الأرباض التى تطورت فى الدولة الحفصية، وأصبحت مأهولة بالسكان حتى أصبحت متلاصقة[٢].

وبلغت الكثافة السكانية والعمرانية زُروتها فى العهد الحفصى أبان فترات الازدهار على يد السلاطين العظماء، وشملت معظم أراضي المدينة وأرباضها التى مثلت مجموعات عمرانية ملتحمة التحامًا عضويا موزعة على هيئة أجنحة تحيط بها الأسوار، وبلغت قمة جمالها العمرانى[٣].

وأرسل السلطان الحفصى أبو فارس عبد العزيز حملة كبيرة بقياده وزير الجيش إلى جزيرة جربة عام ٨٤٦هـ/١٤٢٢م وعلى أثر هذه الحملة أمر وزراءه بتشييد الحصون الحربية فى رأس آدار، ورفراف، والحمامات من أجل رد هجمات الاعتداءات الخارجية[٤] واهتم السلاطين الحفصيون وزراؤهم بأسوار مدينة عنابة وقاموا بترميمها حتى انتعشت هذه المدينة فى فترات قوة الدولة[٥] واهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بإقامة الأسوار، والجدارية حول القرى الحفصية خوفًا من هجمات البدو والنصارى، وكانت أسوار القرى أقل صلابة من أسوار المدن.

---

(١) أن دينار:المصدر السابق ص١٧٨

(٢) الدولاتلى: مدينة تونس،ص١١٦

(٣) العبدرى: رحلة

(٤) يوسف فهمى الجزائرى: ارض البطولة ص٣٣٣

(٥) العبدرى: الرحلة، صـ٢١

obeikandl.com

ولكن كان للحروب والصراعات على الحكم إبان فترات نفوذ الوزراء دور هام على أسوار المدينة وأرباضتها حيث تهدمت وتخربت أثناء الحصار الخانق للمدينة ومع الأزمات والضغوط السياسية، تأثرت لكن الأسوار والأرباض الموجودة فى جميع البلاد الحفصية، حيث تهدمت أسوار بجاية، وأسوار عنابة وأسوار تبسة، وأسوار سوسه وأسوار القيروان وأسوار المهدية وأسوار قسطنطينية تهدمت من آثار الحروب والصراعات أيضا[١] ولهذا أيضا سور قابس الجميل رائع الفن المعمارى، وتخربت وتهدمت أسوار مدينة ليرة وتعدمت بسبب الحروب المستمرة وضعف السلاطين بعد أبي عمرو عثمان، وكذلك تهدمت أسوار طرابلس[٢].

عمارة المدن

حرص السلاطين الحفصيون العظماء على عمارة المدن الحفصية لذلك خضع النشاط المعمارى لهذه المدن إلى النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى، حيث تشكل ظروف التطور العمرانى والعوامل الدافعة لذلك التطور ويعتبر السلطان أبو زكرياء الحفصى من السلاطين العظماء الذين تركوا لنا أعمالًا فنية تدل على عظمة أصحابها وقد أمر وزراءه بإنشاء عده مؤسسات وتجهيزات سياسية ودفاعية ودينية واقتصادية تهدف إلى دعم نفوذ دولته[٣] فقاموا ببناء الجوامع وبنو مصلى العيدين والمدرسة الشماعية وسوق العطارين

(١) ابن القنفد: الفارسية،صـ١٩٣

(٢) الوزان:وصف افريقيا،صـ٤٦٥،٤٦٩،٤٧٣

(٣) الدولاتلى: مدينة تونس فى العهد الحفصى،صـ١٣٧

وحصن تونس وجدد رسوم القصبة[١] وبنو سوق القماش وأنشأوا أسواق جديدة حول جامع الزيتونة، وأمر وزراءه ببناء مصلى قرب الركاض وأنشأوا فى الربض الجنوبى وكان محصنًا بالأبراج والشرفات[٢].

وبلغ الفن المعمارى والمنشآت المعمارية ذروتها فى عصر السلطان المستنصر بالله ووزرائه،حيث بلغ صيته بفضل ما أنجزه هو ووزراؤه من البناءات الضخمة المعبرة عن عظمة الملك ووزرائه بالنفع[٣].

وأشهر ما نفذه وزراؤه جنازة أبى فهر برأس الطابية، وهى عبارة عن متنزه كبير فى رأس الطابية على مقربة من مدينة تونس، وجعل فيها جميع أشجار الفاكهة من التين، والزيتون، والرمان والنخيل والأعناب،وسائر الفاكهة وأصناف الشجر، وكذلك السدر والطلع والشجر البرى واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائز،وشجر القور واليم والنارنج والسرور والريحان والياسمين وغيرها، وجعل وسط هذه الرياض روضة عظيمة وأمر وزراءه ببناء بحيرة كبيرة جلب إليها الماء من الحنايا القديمة التى تجلب الماء من زغوان الى قرطاجة بعد ان بنو لها حنايا جديدة وراء باب سعدون وقرب رأس الطابية،وبلغت ذروة الفن فى عملية جلب المياه فورا فى البحيرة بهندسة معمارية فنية عجيبة، فتضرب أمواج هذا الصهريج الكبير فيصبح مثل البحر ونظرًا لعمق الماء حتى حافات البحيرة، وبنيت بطرفى البحيرة قبتان متقابلتان على أعمدة من المرمر شيدت جوانبها بالرخام المنجد،

(١) ابن الشماع: المصدر السابق،صـ٥٦ـ٥٧

(٢) الدولاتلى: المرجع السابق،صـ١٣٧ـ١٣٨

(٣) ابن خلدون:العبر،ج٦،ج١٢،ص٦٣ -٣١،ابن دينار: المصدر السابق،ص١٥٨،ابن الشماع: المصدر السابق ص٦٧ -٨، ابن أبى الضياف:المصدر السابق، ص٢٠٥.

ورفعت سقوفها الخشبية على أبنية محكمة واشكال منمقة إلى آخر ما اشتملت عليه تلك الرياض من القصور والمقاصير والحوائز غرفًا من فوقها غرف تجرى الأنهار من تحتها[١].

كما أمر وزراءه بتشييد المصانع بتونس الحفصية من أجل تدعيم الحرف والصناعات بالبلاد الحفصية والاهتمام بها[٢] وقد كلفت هذه الإنشاءات الكثير من القوى البشرية والمال من أجل إتمام هذه الأعمال في البحر وأقام الوزراء وأعيان المدينة وأصحاب الجاه ببناء قصورهم ومنتزهاتهم حول بستان أبى فهر[٣] وتفننوا فى أقامة وتشييد القصور الجميلة المشتملة على الارباض والبساتين الواسعة[٤].

ومع مراحل الضعف والانهيار واستبداد الوزراء وضعف السلاطين، وانتشار الفن والثورات فى كل مكان والصراع على الحكم بين الأمراء،تأثرت العمارة الحفصية وبدأت فى الانهيار لأن الوزراء كان شغلهم الشاغل هو جمع الأموال واكتناز الذهب والثروات الطائلة.

فكان الوزير الغافقى على الرغم من حبه إلى اقتناء الذخائر ومحبًا لأفخر

(١) ابن خلدون: العبر،جـ٦،ص٦٣٠ -٦٣١،ابن القنفد: الفارسية، صـ١٢٧ -١٢٨، عبد العزيز الدولاتلى: مدينة تونس فى العهد الحفصى ص١٣٨.

(٢) ابن دينار: المصدر السابق،ص٢٢٠-٢١.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ٦،جـ١٢، صـ٦٢٩ -٦٣٠،عبد العزيز الدولاتلى: مدينة تونس فى العهد الحفصى،صـ١٣٩.

(٤) ابن خلدون:العبر،جـ٦،جـ١٢صـ٦٣١،٦٣٠،٦٢٩،الزركشى: المصدر السابق، صـ٣٤،٣٣،ابن القنفذ: الفارسية، صـ١١٧، القلقشندى:صبح الاعشى،جـ٥،صـ١٤٧

الملابس،قام ببناء القصور الضخمة الخاصة به[١] ومع استمرار ضعف السلاطين وخلودهم إلى الراحة والملذات[٢] وعاست الأعراب فى البلاد واستولوا على القرى والمنازل فى عهد السلطان أبى إسحاق ودمروا ما شيده وزراء السلاطين العظماء السابقون فنون العمارة[٣] وقلت الاعمال الانشائية والعمرانية فى جميع البلاد الحفصية[٤] ومع صعود الدولة إلى الازدهار والتقدم والقوة فى طورها الثالث القوى انعكست تلك الحالة من الأمن والاستقرار الى ازدهار حركة البناء والتشييد والعمران وفى عام ٧٣٥هـ أمر السلطان ابوبكر ووزراءه ببناء البرج الجديد يرأس الطابية، وبلغت النفقة فيه خمسين ألف دينار[٥] وبعد نهاية مرحلة الازدهار دخلت البلاد فى انهيار شديد وبدأت حالة الانحطاط وتدمير كامل للمدن والقرى حيث لجأ السلاطين إلى اللهو والملذات وبناء قصور خاصة بهم من أجل قضاء تلك الملذات[٦].

واستعمل الحفصيون المرمر بأسهاب فى بناء القصور والمنازل،وكان يستعمل لتأطير المداخل وتبليط الصحون، وهندمة الأعمدة والتيجان، وكسوة بعض الأجزاء من الجدران،وكانت المنازل صغيرة ولكنها نظيفة،ومنعشة وفخمة وهى مفروشة بالمرمر الأبيض والأسود، واستعمل

(١) ابن القنفذ: الفارسية، صـ١٣٥،الزراكشى: المصدر السابق صـ٤٢،ابن الشماع: المصدر السابق: صـ٧٥

(٢) ابن الشماع: المصدر السابق: صـ٧٤،المطوى:السلطنة،صـ١٣٩

(٣) ابن القنفد: الفارسية، صـ١٣٩

(٤) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق،صـ٣٠

(٥) الزركشى: المصدر السابق، صـ٧١، الدولاتكى: تاريخ تونس فى العهد الحفصى صـ١٣٩

(٦) برنشفيك: المرجع السابق جـ١ صـ٢٨٠، المطوى: السلطنة، صـ٦٤٧ـ٦٤٨

الوزراء فى بناء ميضاه السلطان والعمائر الخاصة بهم وكبار رجال الدولة المنقوشة بالمرمر الأبيض والأسود، واستغلت هذه الصناعة على مدى واسع فى كل أصناف العمائر وكذلك استعملوا فى بناء مساكن تونس الحجر والآجر(١).

وكانت بيوت الوزراء مساعدوهم تفرش بالرخام،حيث كثر الرخام بتونس، واكثر أبواب الديار معمول بها كعضائد وعتب(٢) تصنع من الرخام(٣).

واستعملت مواد بناء أخرى وبكثرة فى بناء المنازل الحفصية بالحجارة المنحوتة جيدًا، ومسقوفها مزدانة كثيرًا بالفسيفساء وبالجص المجزع، مع فن رائع، ومزونة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى، ويعود هذا إلى أن ألواح الخشب واخشاب النجارة نادرة للغاية، فكانوا يستخدمون الخشب المتوفر محليًا(٤) ثم استعملوا الطوب فى بناءات الحدائق(٥) وأمر السلاطين الحفصيون العظماء ببناء المنشآت والتحصينات الحربية كالأسوار والقصبات من هذا الطوب لأنه طوب مقوى بكمية وافرة من الجير،وله مقاومة شديدة(٦).

---

(١) عبد العزيز الدولاتلى: مدينة تونس فى العهد الحفصى،ص٢٠٧، برنشفيك: المرجع السابق ج١ ص٢٨٠، المطوى: السلطنة، صـ٦٤٧ -٤٨

(٢) العمرى: وصف افريقيا، صـ١٩٧، الوزان:وصف افريقيا صـ٤٤٩

(٣) العبدري: الرحلة،صـ٤٠،اسماعيل العربى: المدن المغربية،صـ٢٢٠

(٤) الوزان: المصدر السابق،صـ٤٤٩

(٥) ابن خلدون:العبر جـ٦،جـ١٢صـ٦٣٣،الدولاتلى: مدينة تونس،صـ٢٠٧

(٦) ابن خلدون:العبر جـ٦،جـ١٢صـ٦٣٣،الدولاتكى: مدينة تونس،صـ٢٠٨

وعمل السلاطين الحفصيون على إعمار المدن الحفصية وتوفير الماء لجميع السكان من أجل استمرار الماء وتوفيره داخل المدن، امر السلطان المستنصر الحفصى وزراءه ببناء الساقية شرقى جامع الزيتونة عام ٦٥٠هـ[١] واستمر توفير المياه داخل المدن مستمرا فى عهد السلاطين العظماء فأمر السلطان أبو عمرو عثمان وزراءه ببناء الأسبلة، فقاموا ببناء سقاية وجعلوها قريبة من الأسواق[٢] من أجل أن يكون الماء مستمرًا للناس وكان هذا العمل من أعظم انجازات وزراءه وعصره[٣] كما أمر وزراءه ببناء مجمع لماء المطر من أجل توفير المياه طول العام[٤] وأمر السلطان أبو عبد الله الحفصى وزراءه بإنشاء أسلة من أجل توفير المياه لسكان المدن الحفصية[٥].

وأمر السلطان وزراءه ببناء السقاية التى ببطحاء الشيخ مردوم داخل باب قرطاجنه وأوقف عليه[٦] وكذلك أمر السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر ببناء سقايةالماء وأوقف عليها[٧].

كما حرص السلاطين الحفصيون وزرائهم على إنشاء الحمامات الحفصية

---

(١) الزركشى: المصدر السابق، صـ٣٣، ابن الشماع: المصدر السابق، صـ٦٦،ابن الضياف:المصدر السابق٢٠٥

(٢) الزركشى: المصدر السابق، صـ١٥٨

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق صـ١٢٢، ابن الضياف:المصدر السابق،صـ٢٣٦

(٤) ابن ابى الضياف:المصدر السابق،صـ٢٣٩

(٥) نفس المصدر السابق،صـ٢٤١

(٦) ابن دينار: المصدر السابق، صـ١٧٣

(٧) ابن الشماع: المصدر السابق، صـ١٢٠.

الكبرى[١]. وأمر السلاطين الأقوياء وزراءهم ببناء الجنان والحدائق وتزيين المدن الحفصية وهذا ما امر به السلطان أبو عمرو عثمان الحفصى،فبلغت مدينة تونس قمة جمالها العمرانى فى عهده[٢] ثم اهتموا بعماره وعمران مدينة سطيف[٣] وميلة[٤] حيث توجد بها قبائل بنى ثابت الذين ساهموا مساهمة فعالة فى قيام الدولة الحفصية وقدموا لهم يد المساعدة وامر السلطان أبو العباس احمد وزراءه بالاهتمام بسكان هذه الجبال ووفروا لهم موظفين من قبل السلطة الحاكمة للإشراف عليهم ورعايتهم[٥].

كما أمر السلطان الحفصى أبو زكرياء وزراءه ببناء منازل مدينة ورقلان، بعد أن دمرها ابن غاينه بتحافها وكمالها ماعدا الجامع الكبير بها، وظلت موضع اهتمام السلاطين العظماء ووزرائهم حيث قام السلطان أبو عمرو عثمان بزيارتها صحبة وزرائه، وعين عليها واليًا من رجاله المخلصين لإدارة شئون

(١) الوتشريس: المعيار ج،صـ١٤٢، ١٤٩، ٢٢٢ الحسن الوزان: وصف أفريقيا صـ٤٢٥ برنشفيك: المرجع السابق،جـ١ صـ٣٢٣، اسماعيل العربى: المدن المغربية،صـ٢٤٤
نجيب زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم أحمد بن سوده، دار الأمير، لبنان، ١٩٩٥، ط١، جـ٣، ص١٤٧.

(٢) ابن الشماع:المصدر السابق صـ١٢٨

(٣) سطيف:تقع على مسافة ستين ميلًا من جنوب بجاية بعد اجتياز كل الجبال فى سهل جميل جدًا ومحاطة بأسوار مشيدة بحجارة بديعة وكثيرة منحوتة وذات شكل رائع الوزان:وصف افريقيا صـ٤٢٤

(٤) ميلة:مدينة قديمة تقع على مسافة اثنين وثلاثين ميلًا من قسيطة،وهى محاطة بأسوار وتحوى ثلاثة آلاف اسرة رابع الوزان:وصف أفريقيا صـ٤٣١ـ٤٣٢

(٥) ابن خلدون:العبر جـ٦،جـ١٢،برنشفيك: المرجع السابق،جـ١،صـ٣١٩

هذه المدينة[١] وأثناء هذة الحملة توفى الوزير الاكبر شيخ الموحدين أبو عبد الله محمد بن هلال يحمل الى حضرة تونس فدفن بدار الشيخ سيدى محرز بن خلف[٢] كم اهتم السلطان أبو زكرياء بأعمار مدينة قابس فأمر وزراءه ببناء وجمع المنشآت العمرانية بها[٣].

وأمر السلاطين الحفصيون العظماء وزراءهم أنشاء الرياض والبساتين التى كانت بمثابة أرض لاختيار هذه المغروسات والمزروعات المختلفة بالإضافة إلى المنشآت المائية المتطورة، والانجازات المعمارية والهندسية التى تشهد على عظمة أولئك الوزراء وسلاطينهم العظام[٤] حيث نجد أثناء فترات السلاطين العظماء ووزرائهم انتشرت البساتين فى جميع المدن الحفصية، فكثرت السواقى والبساتين فى مدينة بجاية[٥] وأمر السلاطين وزراءهم بإنشاء البساتين والجنات قرب أسوار تونس خاصة بالضاحية الغربية من باب سعدون إلى رأس الطابية، وباردو، ومنوبة، وقريانه وقرطاجنة وأريانة حيث الحدائق المليئة ذات الثمار والفواكه والخضر،وزودت هذه الرياض ببئر وناعورة يحركها حيوان لسقى المزروعات وأبراج للسكن[٦] وبسبب انتشار الأمن والأمان فى عهد الوزراء المخلصين لسلاطينهم العظماء من الناس،

(١)الزركشى:المصدر السابق صـ١٥٢، ١٥٣

(٢) الزركشى:المصدر السابق صـ١٥٢

(٣) التجانى:الرحلة،صـ١١٩

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، صـ١١٧، ١٢٨، ابن الشماع: المصدر السابق، صـ٦٤، ٦٨.

(٥) الوزان: وصف افريقيا،،محمد حسن:المدينة والبادية، جـ١،صـ٧٢

(٦) الوزان:وصف افريقيا،مارمول: افريقيا، جـ٣،صـ٢١، ٢٣

أنشأوا البساتين والعمران وكثرت المغراسات،وزاد عدد الصناع وأصحاب المعارف وأرباب البصر مثلما حدث فى عهد السلطان ابى زكرياء الحفصى ووزراءه(١).

واستمرت حركة إنشاء الرياض وازدهارها فى عهد السلطان المستنصر الحفصى ولكنها كانت اقل فى عهد الواثق بسبب كثرة الحروب والاضطرابات السياسية والاجتماعية وتحكم الوزراء فى أمور الحكم، فقلت حركة العمران والبناء،وبدأت تنتعش قليلًا فى عهد السلطان أبى عصيدة ووزرائه عندما تولى الحكم ٦٩٤/٧٠٩هـ فأمر وزراءه ببناء الرياض والأبراج وغرسوا الزروع والغراسات ولقت عمليات إنشاء البساتين اهتمامًا كبيرًا(٢). ومع تدهور الأوضاع وازدياد حدة الأزمات السياسية فى أطوار الضعف والانحلال وسيطرة واستبداد الوزراء وتدهور العمران وخربت البلاد وقطعت البساتين والمغروسات(٣).

ومع ظهور السلطان العظيم أبى فارس عبد العزيز ومن بعده ابى عمرو وعثمان ووزرائهما والذين أمروا ببناء البساتين فى باردو والاميرية وانتشرت باعداد كبيرة فى البلاد الحفصية حيث زرعت بها المزروعات المختلفة من برتقال وليمون وورد وغيرها من الازهار الجميلة،وبنى الوزراء لسلاطينهم

(١) ابن القنفد: الفارسية، صـ١١٢

(٢) ابن القنفد: الفارسية:ص١٣٦، ابن دينار: المصدر السابق، صـ١٤١،ابن خلدون: العبر، ج٦، جـ١٢، صـ٧٥١.

(٣) دائرة المعارف التونسية:الكراسات ٠بيت الحكمة،قرطاج- تونس، عدد ٤، ١٩٩٤، ص١٠٧.

ولهم قصورًا عظيمة الهيبة والبهجة بمختلف النحوت والرسومات الفنية الجميلة[١].

كما أمر السلطان أبو عمرو وعثمان وزراءه بغرس الجنات الكثيرة حول زاوية سيحوم، وغمرت عمارة قوية وازدهرت بفضل مساندة ونشاط وزرائه فى عمليات نشر العمران، وأمرهم بإكمال الساقية المسماة بالمنصورة قرب برج الصخرة جوفى جبل الفتح، حيث على مايبدو كان السلطان يقضى فصل الصيف ومعه وزراؤه بالجنات الموجودة بضاحية المرسى[٢].

ولم يكن اهتمام السلاطين الحفصين ووزرائهم بإنشاء الابراج أقل من اهتمامهم بالجنات والرياض والاسوار والابراج نوعان فى العهد الحفصى، أبراج سكن محصن أو أبراج تدعم الحصن أو السور وانتشرت الابراج المقترنة بالسكن الضحوى المحصن[٣] فى فترات قوة الدولة فسكنها المزارعون الذين يقيمون بزراعة الاراضى المجاورة لهم[٤].

وانتشرت الابراج بناحية مدينة تونس بناءًا على اوامر السلاطين الاقوياء لوزرائهم على امتداد مساحة تتراوح من ستة إلى عشرة كيلو متر حيث اهتموا برأس الطابية وباردو، ورياض السناجره ومئوية واريانة والمنشية وغيرها. وذلك لقرب الأبراج من المدينة وأصبحت مرتبطة بالسكن المحصن[٥] كما

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، جا. ص٧٥.

(٢) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١٢٨، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص١٧٨.

(٣) البرزلي، فتاوي، جـ٢، ص١٧٧.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، جا، ص٧٠.

(٥) المالكي: رياض النفوس، جا، ص٤٢٣.

اهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بحركة تعميرية للأرض المتمثلة في تشييد الأبراج والرياض الخاصة بهم في فترات السلم والأمن، وظلت تحمل الطابع الدفاعي عن المدينة أثناء الأزمات والحروب[١]. وشهدت فترة حكم السلطان أبي عصيدة ووزرائه ثورة عمرانية في بناء الأبراج[٢]. كما أمر السلاطين الحفصيون ووزراءهم بإنشاء الحصون التى تحمل بين طياتها الصبغة العسكرية ليقوم بدور الحامي للمنطقة مثل حصن مسلمي وأجا[٣] وارتبط إنشاء الحصن ببناء المنازل، وإعادة تعميرها ومع إنشاء الحصن انتشرت من حوله المنازل والعمارة بجميع المنطقة المحيطة من حوله، ثم تحول الحصن إلى مركزًا ومخزنًا للمؤنة[٤]. وفي فترات قوة الدولة الحفصية أمر السلاطين العظماء ووزراءهم ببناء الأسواق والفنادق في كثير من القرى وهي: رقة أم الأصابع، ومستية، وعثمان ومرجانة ومسكيانة[٥] وكذلك بناء المنشآت والمتاجر والمنشآت المائية[٦] ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء واستبدادهم انقرضت الضيعات الكبرى[٧] وأثرت الحروب على المدن فأصابها التدمير

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٧٠.

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص٨١

(٣) التجانى: الرحلة، صـ١٠٧، محمد حسن: المدينة والبادية، المدينة والبادية، جـ١، صـ٦٨

(٤)الونشريسي:المعيار، جـ٧، صـ٢٣٢ -٢٣٣.

p.courbin,Metho dologie des faurlles devillages dis parus en france in Aesc,١٩٦٥. PP. ٢١٩-٢٥٦.

(٥) الونشريسي: المعيار،جـ١،صـ١٤٢-١٤٩، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، صـ٦٢

(٦) الونشريسي: المعيار، جـ ١، صـ١٤٢، ١٤٩

(٧) المالكى: رياض النفوس، جـ١صـ١٥٩، حسن حسن عبد الوهاب ورقات جـ١صـ٣٢٧، ٣٥٣، P.Courbin: op.cit. p. P. ٢٥٠

والخراب بالإضافة إلى الأزمات الطبيعية[١] نتيجة للانحلال والصراع على الحكم استمرت عمليات الهدم والاهمال،تهدمت الحصون والاربطة والاسوار،واصابت هذه الابنية الاهمال الشديد[٢] وهجرت المدن من سكانها

وهجرت المدن من سكانها، فنجد أن مدينة طبلبة أصبحت خالية من السكان وفقدت أهميتها الاقتصادية بعد ركود وتدهور النشاط الاقتصادى الكبير الذى كان بها بسبب الحروب المستمرة وغارات العرب القاسية التى خربت اليابس والاخضر فى ظل غياب ونوم عميق من السلطة الحفصية الضعيفة ووزير مستبد[٣] وتخربت مدينة الأريس عدة مرات واعيد تعميرها على أيدى السلاطين العظماء ووزراؤهم[٤] وكذلك تعرضت مدينة صفاقس الى التهديم وقل عدد المنشآت العمرانية بها وهجرها سكانها بسبب ابتزاز العرب لهم.

وهنا خُرّبت قرى وعمرانها بسبب بطش وتعدى الاعراب والحروب الداخلية والاوبئة والكوارث البشرية والطبيعية،فهجرها السكان وتحولت الى خراب[٥] وقام السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بهدم أسوار وحصون القرى والمدن بسبب استيلاء العدو عليها واخذها كقاعدة حربية، ويتحصن بها ضد

(١) محمد حسن: المدينة والبادية،جـ١، صـ٦٨

(٢) مرمول كربخال، افريقيا، جـ٣، صـ٦٩

(٣) المصدر السابق، جـ١٣ صـ١٦

(٤) الوزان: وصف أفريقيا، صـ٤٦، محمود إسماعيل: سسيولوجيا، جـ٣،جـ١،ق٦١٥

(٥) البرزلي: فتاوى، جـ٢، ص٢١٦، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١ صـ١٩

الجيش الحفصى[١] وتخربت مدينة القيروان على ايدى العرب في فترات ضعف الدولة الحفصية وسيطرة الوزراء على الحكم[٢] واستمرت الازمات فى القرن الثامن الهجرى تلقى بأثارها المدمرة على العمران والعمارة الحفصية التى تأثرت بشدة بسبب تلك الأزمات[٣].

ومع زيادة الاضطرابات السياسية والاجتماعية والتعدى على القرى والمدن اندثرت الأسواق وقلة العمليات التجارية، واختفت المنازل والمدن[٤] وشمل التدهور العمرانى كافة المجال الزراعى الممتد من القيروان إلى سوسة، فأصبح قفرًا ينزله البدو بخيلهم وبماشيتهم، وتحولت قرى كثيرة إلى ركام من الأطلال والمنازل المهجورة مثل قلشانة ونمس وزرود والمنصورية وصيرة ورقادة والأصنام وطنباس[٥] وأمام عجز السلاطين الضعاف الوزراء المستبدين الذين عجزوا عن حماية الناس أثناء الأزمات الطبيعية من طاعون وغيره، وعدم القدرة على توفير المسكن البديل نجد الكثير من المدن قد خلت على عروشها من سكانها[٦] مثل بلدة أولاد عيد العالى، حيث خربت وتدمرت زراعتها وتدمرت مدينة أجر نتيجة الحروب المتواصلة بين محمد بن عبد الواحد الحفصى وبنى غانية تلك الحرب التى ادت الى تهدم الكثير من

(١) الوزان: وصف افريقيا صـ٤٩٤

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية،جـ١ صـ٦٥

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية،جـ١ صـ٦٦ ـ٦٧

(٤)محمد حسن: المدينة والبادية،جـ١ صـ٦٦ ـ٦٧

Sloganac:les In stallations Hydrun liques p.٢١٢,٥١١٧

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١ صـ٢١٩

(٦) ابن ناجى: المصدر السابق، جـ٤، صـ١٦٧

المبانى والمنشآت الموحدية والحفصية وتدمير الزروع والمحاصيل[١].

وكان للصراع المستمر بين دول المغرب دوره الهام فى تدمير المنطقة وعمرانها[٢] سواء فى الدولة الحفصية والزيانية والمرينية،فكانت للحرب بين المريني أثناء حملات السلطان أبى الحسن المرينى على تونس، حيث كانت للحروب بين وزير ابى الحسن المرينى وهو الوزير حمو العسرى[٣]، والسلطان الحفصى أبي حفص عمرو ووزرائه حيث دمرت الزروع فى أحواز تونس فى ارض الحامة وقبض على السلطان الحفصى وقتل[٤] وأرسلت رؤوسهم إلى السلطان أبى الحسن المرينى فى ١٧ من جماد الأولى عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م[٥] وكانت حروب الأعراب ضد أبى الحسن والوزير الحفصى ابن تافراجين مدمره تلك معالم العمران فى القيروان عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م حيث دمرت الزروع تمامًا فى القيروان والمناطق المحيطة بها[٦].

(١) أجر: هى مدينة بها الكثير من الحجارة تقع بين القيروان وجلولا،حركة الرياح والعواصف وبها قبائل بربرية ويوجد بها قنطرة لاح البكرى: المغرب، صـ٥٤.

(٢) البكرى: المغرب، صـ٥٤ جـ١٥، محمد حسن:المدينة والبادية، جـ١ صـ٢٢٣

(٣) محمود اسماعيل:سوسيو لوجيا، جـ٣، صـ٨٦

(٤) السلاوى: الاستقصا جـ٣ صـ١٥٥،الزركشى:المصدر السابق،صـ٨٣،ابن مرزوق المسند،صـ٣٦٥،ابن القنفد:الفارسية،جـ١٧،ابن الاحمر:روضة النسرين،صـ٦ الزركشى:المصدر السابق،صـ١٦٦،السلاوى:الاستقصا،جـ٣،صـ١٥٥ جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨٤، برنشفيك:المرجع السابق جـ٢،صـ٩٧

(٥) الزركشى:المصدر السابق صـ١٦١،ابن القنفذ: الفارسية صـ١٧٠

(٦) ابن خلدون:العبر،جـ٦،١٢، السلاوى:الاستقصا،جـ٣،صـ١٥٩،الانصارى: فهرست الرصاع،صـ٣ هامش،الكفيف:الملعين صـ١٨ ــ ٢٠،مقديش:المصدر السابق،جـ١،

وكان للوزير الحفصى ابن تافرجين دور هام فى تدمير أسوار تونس وأبراجها عندما انضم الى العرب وأشياح الحفصيين والعامة وحاصروا القنصلية بتونس ونصبوا عليها المجانيف،ودارت الحرب بين الطرفين فتوقفت الحياة العمرانية وتهدمت إبان تلك الفترة التى ضعفت فيها السلطة الحفصية وسيطرالوزراء بقيادة ابن تافراجين على مقاليد الحكم(١).

وكذلك عانت قسطنطينة من التدمير والخراب أثناء حصار السلطان أبى عنان لها فكان يغاديها ويراودها الحصار أكثر من مرة من أجل إسقاطها حتى توفى السلطان أبو عنان المرينى فقام الوزير عبدالله بحرق مجانيف الحصار(٢) وكذلك لاقت بيجاية من الدمار والخراب أثناء الحملات المرينية عليه، فتهدمت أسوارها ورباضها(٣).

كما قام الوزراء الحفصيون اثناء حروبهم مع بنى عبدالواد بتدمير حصن تمريزدكت بالقرب من بجاية الذى بناه السلاطين الزيانين أثناء هجومهم على

صـ٥٧٨،ابن دينار:المؤنس،صـ١٦٩، يحى بن خلدون: بقية الرواد،جـ١،صـ٢٣٥، ابن راضوان: الشهب اللامعة، صـ١٥، محمد القار: تاريخ الادي الجزائرى صـ٨٩، المطوى:السلطة، صـ٨٩، الحريرى: تاريخ المغرب الاسلامى صـ١٢

(١) يحيى بن خلدون: بقية الرواد،جـ١، صـ٢٣٦،الزركشى: المصدر السابق،صـ٨٤، ٨٥،السلاوى الاستقصا، جـ٣،صـ١٦١ ـ١٦٢، ابن الاخوان:المصدر السابق، مصطفى أبو ضيف: اثر العرب فى تاريخ المغرب، صـ١٨٢، الغنيمى:موسوعة المغرب،جـ٥ صـ٢٦٠

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٧،جـ١٣صـ٢٩٩، الجبلى:تاريخ الجزائر، صـ٧٨٢

(٣) السلاوى:الاستقصا، جـ٣،صـ١٨٥، محمد الكراسى: عروس المسائل صـ١٢الزركشى: المصدر السابق، صـ٩٤ برتشفيك:المرجع السابق،جـ١صـ٢٠٧،حوليات: تاريخ افريقيا الشمالية،جـ٢صـ٢٧

بجاية فى النصف الاول من القرن الرابع عشر[١] وكذلك تهدمت أسوار مدينة عنابة فى نهاية العصر الحفصى وقل عدد سكانها ولكن كانت قلعتها شامخة لحصانتها وقوة بنائها[٢] وفى عام ١٣٣٢م قام السلطان أبو يحى أبو بكر ووزرائه باسترجاع المسيلة من يدى القبائل المتمردة على السلطان والمتحالفة مع بنى عبد الواد،فقام السلطان ووزراؤه بهدم اسوارالمدينة حتى يتفادهم ولايتحصن بها العدو[٣] وتعرضت البلاد الحفصية للخراب والدمارفى نهاية حكم السلطان ابى عمرو عثمان اثناء حملاتة المتتالية ضد الثائرين علية الذين خربوا ودمروا كل ما يقابلهم من منشأت وزروع[٤].

وبعد وفاة السلطان أبى عمرو عثمان مرت البلاد بحالة من الفوضى والاضطرابات تسيطر الوزراء على السلاطين وكثرت الثورات وانعدم الأمن وأصبحت المدن والبلاد الحفصية خراباً وأصاب جميع البلاد الخراب والدمار[٥] وأصبحت البلاد بلا اسم ولا رسم[٦] وعانت البلاد أيضًا من التدهور مع الدمار التام والخراب أبان الغزو الأسبان لبجاية[٧].

ومع ذلك بقيت المبانى تثير الإعجاب، ونجح السلاطين المجهودات

(١) ابن خلدون: العبر جـ٦، جـ١٣،برتشفيك: المرجع السابق جـ١صـ٣١٧

(٢) العبدرى:الرحلة،الوزان: وصف افريقيا صـ٤٣٣،٤٣٢

(٣) الوزان: المصدر السابق صـ٤٢٤،برتشفيك:المرجع السابق،جـ١صـ٣٢١

(٤) ابن ابى الصياف: المصدر السابق،جـ١ صـ٢٣٨، المطوى:السلطنة، صـ٦٣٧-٦٣٩

(٥) العامرى: المغرب، صـ٢١٦-٢١٧،ابن دينار: المؤنس صـ١٨٠

(٦) ابن دينار: المؤنس،المطوى: السلطنة،صـ٦٤٨

(٧) المطوى:السلطنة صـ٦٥٤-٦٥٥

العظماء رغم ما حدث بالبلاد من حروب داخلية وخارجية، ظلت المجوهرات العمرانية الحفصية صامدة أمام العدو الداخلى والخارجى للدولة الحفصية[١].

البيمارستانات

اهتم السلاطين الحفصيون العظام ووزراؤهم بالطب والأطباء،وتفاوت هذا الاهتمام بمراحل وأطوار الدولة الحفصية بين القوة والضعف، وصارت تونس والمدن الحفصية قبله الاطباء الأندلسيين والمغاربة حيث انتشروا في بجاية وقسنطينة وتونس[٢] وكانت الميمارستانات أبان فترات القوة والازدهار ذات صلاحية كمركز لتعليم الطب حيث توفرت الأدوية بها،واقبل المرضى عليها وكانوا دائمًا أمام مباشرة الاطباء والمتعلمين للطب[٣] وكان من بين وزراء السلاطين الحفصيين وحاشيتهم الكثير من الأطباء المشهورين وكما ان هولاء المدرسين والممارسين للطب والمتضلعين أحيانًا فى الشريعة والفقه، حيث قام السلطان المستنصر ووزراؤه بالعناية بالبيمارستانات والأطباء وقربوهم إليهم فنجد أن أشهر أطباء السلطان المستنصر ووزرائه هو الطبيب محمد بن اندراس أصله من مرسية جاء إلى بجاية ومنه انتقل إلى تونس وانضم إلى حاشية السلطان المستنصر الحفصى[٤] وكذلك اهتم السلطان أبو العباس احمد الحفصى (٧٤٧هـ - ١٣٤٦م) بالعمل على تطور البيمارستانات الموجودة

(١) شارل اندرية جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، جـ٢، صـ١٩٩

(٢) برنشيفك: المرجع السابق، جـ٢، صـ٣٨٩

(٣) محمد عادل عبد العزيز: التربية الاسلامية، صـ٤٧، رشا سالم: المرجع السابق صـ٤٣٣

(٤) برنشيفك:المرجع السابق، جـ٢، صـ٣٨٩

فى تونس فأستدعى الطبيب الأندلسى أبو الحجاج يوسف، تلميذ الطبيب اليهودى المشهور ابن ذرزرالذى كان يعد من اشهر أطباء تونس[١] وعلى الرغم من عدم كثرة إنشاء البيمارستانات فى الدولة الحفصية إلا أنه ظهر اهتمام واضح من قبل السلاطين ووزرائهم بالأطباء فنجد السلطان أبا يحيى زكرياء اللحيانى ووزراءه قد قربوا إليهم الطبيب الاندلسى محمد بن ابى عيشون فكلفه السلطان أبو يحى زكرياء بمهام وزير عندما ارسله سفيرًا إلى خايمى الثانى ملك اراجون[٢] لأن القيام بالسفارات كان من مهام الوزراء إبان تلك الفترة وهذا يدل على أهمية وتعاظم دور الأطباء فى الدولة الحفصية.

وشارك الأطباء فى حل المشكلات وجاء الحكم فى قضايا الزواج للكشف عن البنت لمعرفة هل هى بكر أو ثيب[٣] وقام الأطباء بمعالجة الجروح والدمامل وعمل جراحات فى الدولة الحفصية[٤] وأمر السلطان العظماء وزراءهم الأطباء بتفقد أحوال المرضى[٥] وأصبح الاهتمام بالمرضى عظيمًا حيث وفرت البيمارستانات للمجانين والمرضى والمجذومين والعميان

(١) ابن القنفد: الفارسية، احمد محمد الطوخى: العلاقات الاندلسية الحفصية [٦٣٥ـ٧٩٨هـ/١٢٣٨ـ١٤٩٢م] بحوث ندوه الاندلس:الدرس والتاريخ ـدار المعرفة الجامعية ـالاسكندرية،١٩٩٤م صـ٨٩

(٢) برنشفيك:المرجع السابق، جـ٢، صـ٣٨٩، احد الطوخى: العلاقات الاندلسية الحفصية صـ٨٩

(٣) البرزلى: فتاوى، جـ٢، صـ٣٣٨

(٤) المصدر السابق جـ٣، صـ٢٢٢، صـ٢٧٦، جـ٦، صـ٦٦

(٥) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، صـ٢٩٨.

الفقراء[١] وكان السلاطين الحفصيون يتخذون لهم اطباء فى القصور ويقربونهم اليهم كما فعل ملوك الدولة الزيانية والدولة المرينية فى المغرب الاقصى[٢] وانتشرت المارستنات فى جميع المدن الحفصية الكبرى فكان هناك مارستانات فى بجاية[٣].

واستمر توافد الاطباء الاندلسيين على تونس، ومنهم الطبيب الغرناطى احمد بن على بن محمد عبد البر الخولانى (٧٥٠هـ/١٢٤٩م) وشارك فى علاج أهل تونس اثناء الطاعون الاسود الذى تفشى بها اثناء وجوده بالحضرة التونسية[٤] وايضًا قام الطبيب أبو تمام غالب الشقورى الذى سكن بجاية وبعلاج أهل بجاية ووالياها من قبل السلطان الحفصى[٥] وعلى الرغم من كثرة البيمارستانات بشكل كبير مثل المغرب المريني ولكن اجريت بعض العمليات الجراحيةالبسيطة بهذة البمارستانات، وكانت معظم الادوية من الأعشاب[٦] التى كانت تجلب من اسواق العشابين[٧] واهتم السلطان أبو عمرو عثمان

(١) رشا سالم: المرجع السابق صـ٤٣٣

(٢) مارمول كربخال: فريقيا، جـ٢، صـ١٣١، الوزان: وصف افريقيا،صـ٤٢٢، احمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، صـ٢٤٨ـ٢٨٦

(٣) ابو حمو: واسطة السلوك، صـ٢١، بوزيانى الدراجى:نظم الحكم فى الدولة منى عبدالواد، صـ١٨٣

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة: السفر الاول، صـ٢١٩

(٥) ابن الخطيب: الاحاطة، جـ٤، صـ٢٤٠ـ٢٤١

(٦) برنشيفك: المرجع السابق، جـ٢، صـ٣٩٢

(٧) مجهول: كتاب الطينح،صـ٦٤، الطمار: تلمسان،صـ ٢٠٩

بالمرضى والمجانين[١] فقام بتجديد المارستان الموجود شرقى القفصة من أجل المرضى.

ووفر للبيمارستانات سبالة شرقى القصبة[٢] وأوقف عليها لإدارتها والإنفاق عليها ومن أشهر أطباء هذا البميسارستان الطبي البارع محمد الشريف الحسينى[٣] وأثناء الاوبئة الشديده كان العلاج ميئوسًا منه، حيث أمر الأطباء بعدم الاستطاعة لعلاج هذه الامراض ولاتستطيع الادوية ان تفيد فى هذه الحالات، وعجزت المارستانات على توفير الادوية اللازمة[٤] وفى عهد الضعف والانحلال واستيلاء الوزراء الضعفاء لا يتوفر الدواء وتقل العناية الصحية، ولايستطيع الطب البدائى ان يساعد فى تقليل نسبة الوفيات[٥].

وخلاصة القول نجد ان السلاطين الحفصيين العظماء ووزراءهم قد اهتموا بالحياه العمرانية وعمارتها فأمروا وزراءهم بإنشاء المدارس والمساجد والمكتبات والفنادق وعماره البلاد وإنشاء المبانى الحصينة العسكرية من زوايا ورباطات وأسوار، وقاموا ببناء الفنادق والحمامات والبمارستانات والرياض وإنشاء الأسبلة والأسواق وغيرها التى ازدهرت إبان فترات السلاطين العظماء ووزرائهم حيث احتضنوا المهاجرين الأندلسيين الذين اثروا فى العمارة

(١) ابن الشماغ:المصدر السابق، صـ١٢٠

(٢) ابن ابى الضياف: اتحاف اهل الزمان، جـ١، صـ٢٣٦

(٣) احمد بن عيسى: المرجع السابق، صـ٢٧٩، احمد بن عامر: الدولة الحفصية، صـ٩٣

(٤) محمد بن حسن: المدينة والبادية، جـ٢، صـ٦٠٦-٦٠٧

(٥) الدولاتلى: مدينة تونس: صـــ٩٣

الحفصية التى اصطبغت بالصبغة الأندلسية،على العكس من فترات واطوار الضعف وسيطرة الوزراء حيث قل الاهتمام بالعمران والعمارة، فتهدمت المنازل بسبب كثرة الصراعات بين الأمراء الحفصيين للاستيلاء على الحكم ودور الأعراب فى تدمير تلك المبانى.

obeikandl.com

دور الوزراء فى الأدب

بلغ الأدب قمة المجد والازدهار فى عصر الحفصيين، حيث كثر العلماء والأدباء والشعراء فى البلاط الحفصى بسبب اعتزاز الدولة الحفصية بالخلافة الإسلامية وانتقال الأدباء الأندلسيين إلى العاصمة الحفصية، كآل أبى سعيد أصحاب القلعة المجاورة لغرناطة، وبيت العود الرطب، وابن عصفور، وابن الآبار وغيرهم[١] كما كان يهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بالأدباء والأدب حيث كان السلاطين والوزراء يحبون مجالس العلم والادب والاستفادة منها مثل سلاطين بنى مرين.

فقاموا بإنشاء المدارس والمكتبات وشجعوا على التأليف وإرسال البعثات للأزهر بمصر[٢] ووصلت تونس إلى أوج نهضة أدبية وعلمية وثقافية، وكثر علماؤها وأدباؤها وشعراؤها من جهة، وازدهرت مراكز الثقافة من مساجد ومدارس وجوامع ومكتبات من جهة أخرى[٣] وكان القصر من أهم النشاط الأدبى والفكرى حيث كان يشجع السلاطين ووزراءهم لرجال الأدب والفكر وكانت بالعضنة مكانة خصصت لايواء المكتبة الملكية وكان السلاطين والوزراء يلتقون فيها بالعلماء والادباء، وكانت تلقى بها

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى من فجر الفتح العربى لافريقية إلى العصر الحاضر مكتبة المنار ـ تونس، [د.ت]، صـ١٨٥

(٢) عبد الفتاح مقلد غنيمى: الموسوعة، جـ٥، صـ٩٩

(٣) ابن الدراج السيتى: كتاب الامتاع والانتفاع بمسألة سماع السَّماع: دراسة وإعداد محمد بينشقروم،الرباط ١٩٨٢، أحمد الطويلى: فى الحضارة العربية التونسية، كتاب العارف،صـ٧

المحاضرات[١] مما جعل تونس مركزًا وأرضا خصبة لتعليم فنون الأدب والنقد الأدبى والعروض والنحو والصرف وكانت مركزًا لتأليف الكتب فى شتى المجالات الأدبية والفكرية[٢] وهنا يظهر السلطان الحفصى أبو زكرياء الأول ووزراؤه ومدى اهتمامهم بالأدباء والعلماء، حيث كان هذا السلطان العظيم بارعًا فى كثير من العلوم والآداب والفنون، فكان عالمًا فقيهًا، بعلم المنطق وأصول الدين، فكان حافظًا للقرآن الكريم والحديث الشريف منذ صغره، فصيح اللسان إلى جانب إجادته للكتابة وإلقاء الشعر الجيد، فكان حبه للعلوم يقوم بمجالسة طلبة العلم والأدباء، فكان يشترك هو ووزراؤه الذين اختارهم مثله محبين للعلم والأدب والأدباء فى جميع مجالسه ومناقشاته مع الأدباء والعلماء والفقهاء[٣] فازدهر الأدب وجميع فنون العلوم

واعتنى السلطان أبو زكرياء ووزراؤه بالعلماء والأدباء وأعطوهم أموالًا طائلة فتقرب اليهم فحول الشعراء والعلماء، لأن السلطان الحفصى أبا زكرياء كان عالمًا مجيدًا شاعرًا محبًا للشعراء فكانت الثروة العلمية فى عهده قد بلغت الذروة، فترك ستة وثلاثين ألف سفر من الكتب[٤] فيحدد السلطان أبو زكرياء ووزراؤه مواسم الأدب إلى تونس وأعادوا إليها سوق عكاظ فكان يبالغ هو ووزراؤه فى إكرام الأدباء ويرفه عليهم ويخلو بهم ويكافأهم على قصائدهم،

(١) الدولاتلى: تاريخ تونس، صـ٨٤

(٢) أحمدالطويلى: فى الحضارة العربية التونسية، صـ٨

(٣) ابن القنفذ: الفارسية، صـ١١٣، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى صـ١٨٨

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، صـ١١٢ ـ١١٣

ويغرى بينهم ويفضل بعضهم على بعض[١] وأصبحت تونس مركزاً لاحتكاك الأفكار والمناقشات الفقهية والخصومات الأدبية والمطارحات الثقافية بتشجيع من الملوك والوزراء وأصحاب الثروة، وكان مبعثها خاصة التنافس لتحصيل على الخطط والمناصب السامية في هذه البيئة الفكرية والأدبية العالية، وكانت المشاحنات تقع من بعض الأدباء الأفارقة وبين بعض الأدباء الأندلسية المهاجرين إلى تونس، مثلما كان من أحمد الغساني وابن الآبار ومن معه أو تقع هذه الخصومات بين الأدباء الحفصيين أنفسهم مثلما بين ابن خلدون وابن عرفه وفرق بينهما أو بين راشد وخصومه وعلى رأسهم إبراهيم بن عبد الرفيع ومنهم محمد بن عبد السلام ومحمد بن هارون وكانت هذه المعارك والمنافسات الفكرية بين الوزراء الأدباء أيضًا فكانت أحيانًا تؤدى إلى القتل والاغتيال والتأمر لدى السلاطين الأقوياء ليفتكوا بهذا أو ذاك[٢] ونتيجة لاهتمام السلاطين الحفصين بالأدباء قربوهم إليهم، وقلدوهم الوظائف الحكومية الرفيعة فى دولة بنى حفص، فجعلوهم وزراء الإنشاء وهى وظيفة الكتابة التى تعد من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان الحفصى، وأطلق الحفصيون على هذه الوزارات ديوان الإنشاء والعلامة[٣] وكانوا يختارون لهذا المنصب الهام أميز وأمهر الكتاب والأدباء الذين يقومون بتدبير الكتب والرسائل السلطانية وقد ترأس عدد كبير من أئمة البيان والفصاحة[١] وكان

(١) أحمد العامرى: المرجع السابق، صـ٥٦

(٢) الطويلى: فى الحضارة العربية التونسية صـ٩ ـ١٠

(٣) الزركشى: المصدر السابق، صـ٢٨

أئمة البيان والفصاحة[١] وكان من أشهر هؤلاء الوزير لبن الآبار، وزير القلم الذى هاجر إلى تونس بأسرته، لاجئًا إلى حمى السلطان الحفصى لإنقاذ بلاد الأندلس من ملك أرغونه.

فأنشد بن الآبار السلطان أبو زكرياء الحفصى يصف فيها مسلمي الاندلس وضعفهم وتقهقرهم أمام العدو فقال:

أدرك بخيلك خيل الله، أندلسًا ... أن السبيل إلى مناجاتها درسًا[٢]
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يالجزيرة أضحى اهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جذها تعسا

ويستمر بقوله للسلطان

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المرائس لها حبلًا ولا مرسا
وأمى طمست منها العداة كما ... أصيبت من دعوة المهدى ما
ايام سرت لنصر الحق مستبقًا ... وبت من نور ذاك الهدى مقتبسًا
يالجزيرة أضحى اهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جذها تعسا

واستمر يستجديه فيقول:

هذى رسائلها تدعوك عن كثب ... وأنت أهل مرجو لمن يئسا

---

(١) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، صـ٢٢٨

(٢) المقرى:ازهار الرياض، جـ٣،صـ٢٠٧، ابن الابار: الحلة السيراء، جـ١،صـ٣٥،المطوى:السلطنة،صـ١٣٧،ابن الشماع:المصدر السابق،صـ٥٩،محمد عبد الله: تراجم اسلامية شرقية واندلسية،مكتبة الاسرة ٢٠٠١،صـ٣٤٨

ويختم القصيدة قائلا:

يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع اعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء انك من ... يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منها إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا[1]
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأسًا كل من رأسا
وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرفت ... عيونهم أدمعا تهمى زكًا وخسًا[2]

وعندما عاد ابن الآبار إلى إفريقيه ترك ميناء بنزت وكتب إلى الوزير الحفصى أبى عبد الله وعندما وصل ابن الآبار إلى تونس حتى بلاطه أصبح من رجال الدولة المرموقين ضمه السلطان أبو زكرياء إلى بلاطة وأسند إليه منصب وزير الإنشاء، وكان الوزير ابن الآبار بحكم منصبة على علاقة بالسلطان الحفصى وباقى وزرائه وكان هذا المنصب يقتضى من السياسة والخلق وحسن التدبير عكس ما كان عليه ابن الآبار، فقد كان صاحب أنفة

(١) المقرى: أزهار الرياض، جـ٣، صـ٢٠٧ ،٢٠٨ ،٢٠٩ ،٢١٠، المطوى: السلطنة، صـ١٣٧

(٢) المقرى: ازهار الرياض، جـ٣، صـ٢١٠ وكانت هذه القصيدة من ديوان ابن الزياد هو استصراخ الاندلس وعرفت بلاد الاندلس والمغرب هذا النوع من الشعر الذى ارتبط بالوطن فى صراعته مع الاعداء ثم ضياعه، وذكريات الشاعر فى ذلك الوطن، كم ارتبط فى ذلك الوقت نفسه بمشاعر الحزن وصرف العاطفة وقوة الحنين والفجع على ضياع الوطن، واستصراخ الملوك والامراء وشحذ همم عزيمة المسلمين للقيام بالجهاد ضد الغصارى. راجع: محمد أمين المؤدب: استصراخ الاندلس، فى ديوان ابن الآبار، قراءة فى أعمال ابن الآبار البلنسى الأندلسى، أعمال اليوميين الدراسين٦، ٧مارس ٢٠٠٢، إعداد مصطفى القديرى. مكتبة الآداب والعلوم الإنسانية وجده بالمغرب جـ١ ٢٠٠٣، صـ٦٩ ٨٥

وعجب وضيق خلق[١] وكانت حياته السياسية محاطة بالتنافس والتأمر خاصة من أصيلى الأندلس الذين كانوا معه فى البلاط الحفصى، وكان موقعة بالنسبة للسلطان يثير غضب وغيرة الآخرين، وكان ابن الآبار يكتب العلامة بالخط المغربى فأشير على السلطان أبى زكرياء الحفصى بأن تحول كتابتها إلى أبى العباس العسانى الذين يجيد الكتابة بالخط المشرقى، وقد أحب السلطان أبو زكرياء ذلك، إلا أن ابن الآبار غضب واستمر يكتب الرسائل بالخط المغربى، ضاربًا بأوامر السلطان عرض الحائط، رافعًا راية التحدى وعدم الامتثال مما دعا أبو زكرياء الحفصى إلى عزلة عن كتابة الرسائل وألزمته المكث ببيته[٢] فاستشاط غضبًا ورمى القلم من يده وأنشد:

اطلب العز فى لظى وذر الذل ولو فى جنان الخلود[٣]

(١) ابن خلدون:العبر، جـ٦، جـ١٢، صـ٦٧٢ ـ٦٧٣، ابن الابار: اعتاب الكتاب، تحقيق صالح الاشتر، مجمع اللغة العربية للنشر، دمشق، ١٣٨٠هـ/١٩٦١ م جـ١، صـ١٤،المقرى: نفح الطيب، جـ٤، صـ٢٨٢، الزركشى: المصدر السابق، صـ٢٨، المطوى:السلطنة، صـ٢١٦،احمد العامرى:المصدر السابق، صـ٦١،ابن القنفذ: الفارسية، صـ١١٦، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، صـ٣٥٠

(٢) الآبار: الحلة السيراء، جـ١،صـ٣٩، أعتاب الكتاب، صـ١٣ ـ١٤،ابن الأحمر: مستودع العلامة: صـ١١،المطوى السلطنة، صـ٢١٦، الزركشى:المصدر السابق، صـ٢٨ ـ٢٩، العبادى: دراسات،صـ١٩٠

(٣) ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، صـ٣٩، اعتاب الكتاب، صـ١٣،ابن الأحمر: مستودع العلامة، صـ١١.

وكان هذا الصراع بين الوزراء والأدباء الحفصين حلقة من اجل الوصول إلى اعلى المناصب السياسية سواء من الوزراء الحفصين وبعضهم البعض أو غيرتهم على الوزراء الأندلسيين الذين جاءوا ألى مشاركتهم فى أوطانهم ومناصبهم[١] والتجأ وزير الإنشاء المعزول ابن الآبار إلى ابن السلطان، الأمير أبى عبد الله يسأله الشفاعة عند أبيه وراح ابن الآبار ينظم القصائد الضارعة معتذرًا وراجيًا عفو السلطان وصفحه عن ذلته قائلا:

لمبشرى برضاك أن يتحكما ... لا المال استثنى عليه ولا الدما

ندمى على ماندمنى دائم ... وعلامة الآداب أن يتندما

وعكف ابن الآبار خلال فترة نفيه عن الحضرة على تأليف كتاب رفعه إلى السلطان وضرب له فيه الأمثال على عفو الملوك والأمراء على ذنوب كتابهم وقبولهم أعذارهم وسماه (أعتاب الكتاب) وجاءت مساعى الأمير أبى عبد الله محمد مكملة بالنجاح، ورضى السلطان عن ابن الآبار، وغفر له ذلته وأعاده إلى وزارة الإنشاء[٢].

وكانت الفترة التى قضاها الوزير ابن الآبار ببجاية فرصة بعيدة عن التنافس ممن الوزراء وألف كتابين هى (التكملة والصلة) ولكنه كان لا يزال يحمل بداخله كرهًا للوزراء الذين ساعدوا على عزله من منصب وزير الإنشاء[٣] وعزما المستنصر الحكم بعد وفاة السلطان أبى زكرياء الحفصى جمع

(١) ابن الآبار:الحلة السيراء، جـ١، صـ٤٠

(٢) ابن الابار: اعتاب الكتاب، صـ١٥،١٤، الحلة السيراء، جـ١ صـ٤٣،٤٢، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق صـ٦٢،،محمد عبد الله عنان: تراجم اسلامية، صـ٣٥٠

(٣) ابن الآبار الحلة السيراء، جـ١ صـ٤٤،ابن خلدون:العبر، جـ٦،جـ١٢، صـ٦٥٤

حوله الأدباء والعلماء وكان ابن الآبار من بين المقربين إليه[١] وقام وزير الإنشاء ابن الآبار بتأليف الرسائل التى تخلد وصف منشآت السلطان الحفصى المستنصر وإصلاحاته[٢] ولكن حساد ابن الآبار كثيرون لا يفتأون يكيدون له،وفى مقدمتهم الوزير ابن أبى الحسين الذى كان من ألد أعدائه الحاقدين عليه[٣] وتمكن الوزير ابن أبى الحسين من أن يوغر صدر السلطان المستنصر على ابن الآبار وأن يحمله على نفيه إلى بجاية[٤].

ولكن الوزير ابن الآبار استطاع استرضاء السلطان المستنصر الحفصى والفوز بعفوه ولكن ابن الآبار لم يستطع أن يحتفظ برضى السلطان طويلًا بعد عودته إلى تونس وعاد التنافس والحسد من الوزراء له، وهنا سعى إليه الوزير أحمد بن ابراهيم الغساني احد أهم وزراء السلطان الحفصى الذى كره وجود ابن الآبار بالقرب من السلطان[٥].

فاتهم الوزير العنانى ابن الآبار بالتدبير والتأمر على السلطان[٦] وكذلك ساعده فى هذا الاتهام الوزير الآخر ابن أبى الحسين الذى اتهم ابن أبى الآبار لدى

(١) ابن الآبار: أعتاب الكتاب، صـ١١٥، المقرى: أزهار الرياض، جـ٣، صـ٢١١.

(٢) المقرى:أزهار الرياض،جـ٣، صـ٢١١.

(٣) ابن خلدون:العبر، جـ٦، جـ ١٢، صـ٦٥٤،ابن الآبار: أعتاب الكتاب،صـ١٥

(٤) ابن خلدون العبر، جـ٦، جـ١٢،صـ٦٥٤، ابن الأحمر: مستودع العلامة، صـ١١-٢٨.

(٥) المقرى: جـ٣، صـ٣١١، ٣١٥

(٦) ابن الآبار: الحلة السيلاء،جـ١، صـ٤٤، احمد العمرى: المرجع السابق، صـ٦٣، العبادى: دراسات، ص١٩٠، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، صـ٣٥٠.

السلطان بكرهه للدولة الحفصية مما دعا المستنصر إلى القبض عليه وسجنه[١] بسبب السعاية به فشكى ابن الآبار وتألم ونعى الزمان على سوء حظه علت سينى فى انخفاض وحكم الرب فى المربوب راض.

إلى كم أسخط الأقدار حتى كأنى لم أكن يومًا براض[٢]

وأمر السلطان المستنصر وزيره احمد بن إبراهيم الغسانى بتفتيش داره وكتبه ودفاتره فعثر على رقعة فيها هجاء للسلطان يقول طعنى بتونس خلف سموه ظلمًا خليفة[٣].

وعثر عنده على كتاب فى التاريخ يسيء فيه إلى السلطان[٤] فأمر بضربه بالسياط وقتله على أبشع صوره ثم حرقت جثته فى محرم سنة ٦٥٨ هـ[٥] ولم يقف النكال بابن الآبار عند هذا الحد الفظيع المؤلم الموحش بل احرقوا تأليفه بمرأى ومسمع من البشرية وقيل أنها خمسة وأربعون مؤلفًا فكانت نعم الثروة

(١) المطوى:السلطنة، ص٢١٧، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية ص٣٥٠.

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١،ص٤٤، أعتاب الكتاب ص١٧.

(٣) ابن خلدون: العبر مج٦، ج١٢، ص٦٥٥، ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، ص٤٥، أعتاب الكتاب ص١٧، الزركشى: المصدر السابق، ص٣٥، ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص٢٨-٨٧، احمد العامرى: المرجع السابق، ص٦٣، المطوى: السلطنة، ص٢١٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، مج٦،جـ١٢، ص٦٥٥،ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص١٨، ابن العامرى: المرجع السابق، ص٦٣، برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢،صـ٤٢٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ١٢، صـ٦٥٥، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، صـ٢٨، الزركشى: المصدر السابق، ص٣٦، الحفيلى: شذرات الذهب، ص٢٩٨، ابن القنفذ أبى العباس احمد بن حسن بن على الخطيب، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الأوقاف الجديدة:بيروت [د.ت]، ص٣٢٤-٣٢٥.

العلمية والأدبية تلتهما النيران[١] وتجنى عليه وحشية الإنسان، فكانت هذه المأساة سببها الوزراء والتنافس بينهما داخل البلاد الحفصى من أجل الفوز بالنفوذ والسلطان والجاه دون وازع دينى للتنافس الأدبى السياسى الشريف، ولكن كانت الأحقاد والكراهية هى المسيطرة على العلاقات بين الوزراء والوزراء الأدباء من ثانية وبين الوزراء والأدباء من ثانية أخرى.

ثم تولى الأديب الفقيه احمد بن إبراهيم الغسانى وزير الإنشاء ((العلامة السلطانية)) بدلًا من ابن الآبار، بسبب حسن كتابته بالخط الشرقى[٢] وقام بالتقرب إلى السلطان الحفصى أبى زكرياء ووزيره لبن أبى الحسين من أجل استبعاد ابن الآبار من تونس واستطاع بالفعل من تفية إلى بيجاية وانفرد وحده بخطة الإنشاء[٣] وعندما توفى السلطان أبو زكرياء وتولى المستنصر الحفصى الحكم جعله وزيرًا له وقربه إليه وزاد نفوذه داخل البلاط الحفصى[٤] وكان الوزير الأكبر أبو عبد الله بن أبى الحسين من أشهر الأدباء والشعراء وكان بارعًا فى العلوم متقننًا فيها، مجيدًا وعتيقًا فى اللغة وكان يقص الشعر ويجيده، ويرسل فيبرع وكان له تأليف فى اللغة سماه (الخلاصة) اعتنى فيه بترتيب كتاب (المحكم) كانت على نسق (الصحاح للجوهرى)[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر مج٦، ج١٢، ص٦٥٥، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص١٨، الزركشى: المصدر السابق، ص٣٦، الوليد بن الأحمر: مستودع العلامة، ص١١، أحمد العامرى: المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) ابن الآبار: إعلام الكتاب، ص١٣، ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٥٣.

(٣) ابن الآبار: إعلام الكتاب، ص١٣، المطوى: السلطنة، ٢١٦.

(٤) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج١، ص٤٣، ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص٢٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٧٣.

وجاء أبو عبد الله إلى تونس فى عهد أبى زكرياء الحفصى وتقرب إليه وجعله السلطان خاصته بسبب إمكانياته الأدبية والعلمية وتولى الوزراء على عهده[١] واستمر فيها حتى ثورة ابن اللحيانى ضد السلطان المستنصر ونتيجة للتنافس بين الوزراء الحفصيين وانتشارًا الساعية بينهم فأمر السلطان المستنصر باعتقاله بداره لمده تسعه أشهر بحجه مساعدته للثأر ابن اللحيانى، ثم سرحه وأعاده إلى مكانه، وظل الوزير الأديب الشاعر ابن أبى الحسن هو الرجل الأول فى الدولة بعد المستنصر إلى أن توفى سنة ٦٧١هـ[٢] وكان له قصائد جميلة يصف فيها الحنايا قرب تونس.

ومحنية الأظلاع تحتوى على الثرى ... وتسقى بنات الثرى در الترائب
تعد من الافلاك أن ميارها ... نجوم ارجم المحل ذات الذوائب
واطراقها رقص الغصون ذوابلا ... فدارت بأمثال اسيوف القواضب
وما خلتها تشكوى بأجنائها الصدى ... ومن بين متنبسها اطراد المذانب
فخذ من مجاريها ودهمة لونها ... بياض العطايا فى سواء المطالب

وله من قصيدة فريدة يحرض فيها أحد فرسان العرب وهو عنان بن جابر على العودة إلى أفريقية وقد نزح إلى المغرب، مغاضبًا للدولة الحفصية طالعها:

سلوا ومنه بين القصا والواجر ... هل استبن فيها واكفات الخواطر
ودونكم ياللرجال تحية ... يخص بها بنى عنان بن جابر

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص٢٩، حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ الأدب التونسي، ص١٩٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج٦، ص١٢، ص٦٧٢-٦٧٣، المطوى: السلطنة، ص٢١٥-٢١٦.

فتى مادعنه ذلة فأصابه ... فكيف طوى كشحا على نفس غادر
وقد كان بيني ياعنان وبينكم ... بواطن صناها يحفظ الظواهر
وفى كل عام للجيش وقعة ... يجر بها أديالنا جر سادر
على كل هولاء القنان كأنه ... ربيب سعال لاح فى شكل طائر
يربك على عطفية مسحة مؤمن ... ويكم فى جنبين أضغان كافر
فمد لها سمر القنا فتحالها ... تلين القنا مابين أذن وحافر
فتحتال اعطاف وتعسل سمرنا ... وتهتز كالسمر ابتغاء المضافر
نشاوى على خيل نشاوى كأننا ... واسيافنا لم تستفق من تساكر
عزيز علينا ياعنان ضلالة ... حدت بك لاتلوى على زاجر[1]

ومع كثرت الأدباء وازدهار الأدب والشعراء فى عهد السلاطين العظماء كثرت حركات القتل للأدباء بسبب الصراع والدسائس بين الوزراء وبعضهم البعض،وكان هدف كل منهما السيطرة على البلاط الحفصى وظهر هذا التنافس وتلك الخصومات أثناء الحلقات الأدبية[2] وتوالت النكبات للأدباء والعلماء، حيث لعب وزراء المستنصر الآخرين دورهم فى القضاء على الأديب النحوى المشهور ابن عصفور، فبعد أن قربه السلطان المستنصر وأصبح من جلسائه، حدث ما عكر صفو العلاقة بين السلطان وابن عصفور فى أحد أيام ذى القعدة ٦٦٩هـ/١٢٩٩م، حيث كان السلطان جالسًا برياض أبى فهر فى الشعبة التى بناها على الجابية الكبيرة أعجبه المنظر وأحسن بعظمة السلطان فقال لجلسائه مفتخرًا، لقد أصبح ملكنا الغداة عظيمًا وكان من بين الحاضرين أبو الحسن على بن مؤمن المعروف بابن عصفور فرد على السلطان قائلًا «بنا

(١) حسن حسني عبد الوهاب: تاريخ الأدب التونسي، ص٢٠٠-٢٠١.
(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ص٢، ص٤٢٥.

وبأمثالنا» فأسر السلطان الكلمة فى نفسه لما فيها من تطاول الأندلسيين على بنى حفص وعندما فرج الأديب الفقيه ابن عصفور أمر المستنصر بعض من رجاله بأن يلقى ابن عصفور فى جابية الماء بثيابه، وإلا يتركه يصعد ويخرج من الجابية[١] وكان ذلك اليوم شديد البرد، فأظهر الحب معه[٢] فكان كلما حاول الخروج أعيد إلى الجابية، وبعدما خرج أصيب ابن منصور ببرد وحمى شديدين حتى توفى بعد ثلاثة أيام[٣] ودفن الأديب النحوى ابن مهنا قرب جبانة الشيخ نفيس شرقى باب ينتمى احد أبواب القصبة[٤] فكانت أنفة وكبرياء المهاجرين الأندلسيين والتفاخر على أهل البلاد الحفصين دوره فى الصراع والنكبات للأدباء والفقهاء والسياسيين منهم.

وكان من بين الوزراء الأدباء على عهد السلطان المستنصر الأديب الوزير ابن أبى الحسين[٥] الذى كان يحسن الكتابة، وكان للوزير أبى عثمان سعيد بن الحسين دور كبير فى المرتبة التى وصل إليها أيام المستنصر حيث مكنه هذا الوزير من مساعدته فى التدرج الوظيفى إلى أن تولى منصب وزير الإنشاء

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص٣٩، المطوي: السلطنة، ص٢١٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٣٩، الغبريني: عنوان الدراية، ص٢٦٦-٢٦٨، ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٥، ص٢٣٠.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص٣٩، المطوي: السلطنة، ص٢١٨.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص٣٩.

(٥) هو يحيى بن عبد الله الغافقى وكنيته أبو الحسين أندلسًا من أعمال مرسية، وفد على تونس مع الجالية من شرق الأندلس إبان فترة استيلاء العدو النصارنى على البلاد • راجع بن خلدون:العبر، ج٦، ج١٢، ص٦٧٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٤.

«الديوان» حتى توقفت صلته[١] بالسلطان الواثق وأصبح من خاصته فولاه الإنشاء واشتد التنافس بين الوزيرين حتى تمكن ابن الوزير الحير وزير الأشغال من حبك الرسائل والمؤتمرات ضد وزير الإنشاء ابن الحسين، وأغرى السلطان الواثق على الفتك به حتى يستولوا على أمواله الكثيرة، فقام يعزله عن وزرائه، وأمر بامتحانه ومصادره أمواله[٢] وبعد ستة أشهر من التعذيب[٣] مات سعيد بن أبى الحسين فى يوم السبت الثانى لجمادى الآخر عام ٦٤٧هـ بدار الجوهرى داخل الفصينة ثم أخرجت جثته إلى دار صاحب الشرطة[٤] ودفنت جثته بمكان مجهول، وبذلك قضى الوزير على وزير أخر من أجل التنافس على المناصب والاستحواذ والتحكم فى السلطان، وهنا فقدت الحياة الأدبية واحدًا من الأدباء المتميزين.

وكذلك حدث للأديب أبى العباس أحمد الليانى وزير البحر عندما أمر السلطان المستنصر بالقبض عليه فى أول أيام محرم ٦٥٩هـ، وكان الليانى أديبًا مهتمًا بقراءة الأدب والفقه فقربه السلطان المستنصر إليه ورأس ديوان البحر الذى كان يعتبر بمثابة وزير البحر[٥] حتى سعى الوزير ابن أبى الحسين وغيره من الوزراء بالوشاية للسلطان ومنوا السلطان بالأموال الكثير التى يكتنزها

(١) ابن خلدون:العبر، ج٦، ج١٢، ص٦٧٧، الزركشى: المصدر السابق، ص٤١، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، صـ١٠٤: المطوى: السلطنة، ص٢٣٢.

(٢) ابن خلدون:العبر،ج٦، ج١٢، ص٦٧٧، برنشفيك: المرجع السابق، ص١٠٤، المطوى: السلطنة، ص٢٣٣.

(٣) ابن خلدون:العبر، ج٦، ج١٢، ص٢٧٧، المطوى: السلطنة، ص٢٣٣.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص٤١.

(٥) المصدر السابق ص٣٦.

ابن الليانى وأنه عازم على القيام بالثورة فى المهدية، وامتلأ سمع السلطان من هذا الكلام[١] فقبض عليه فى منزلة،فوجدوا فيه ذخائر من ياقوت وزمرد ولؤلؤ فقيل له ما هذا وأنت تزعم الأمانة،فقال لقد جمعتها لمولانا السلطان،فقالوا لقد وصلت السلطان، وعزم على الفرار فى مركبه إلى جزيرة صقلية[٢] فكان أول من المحرم،وكان الوزير اللغسانى بين يدى السلطان فى القبة الكبيرة فنزل المطر فقال السلطان: اليوم يوم مطر. قال الغسانى ويوم رفع الضرر، فقال السلطان ماذا بعد ذلك فقال الغسانى والعام عام تسعة كمثل عام الجوهرى، فكان مجلس السلطان منعقد من كبار وزرائه ورجال دولته فقال لهم اسمعوا ماذا قال الغسانى وجعل يردد البيت، فقال اقبضوا على الغسانى فنرضى به الله والخاصة والعامة[٣] فقبضوا عليه وحمل إلى دار الساة وعذب بها حتى مات ثم أخرجت جثته إلى الصبيان يجرونها ورموها فى البحيرة، بعد ما صدرت أمواله[٤] ومن شعره:

هذا العذيب وهذه نجدُ أين الذى يقضى به الوجد
ما هكذا حال المحب إذا إعلام ربع حبيبة تبدو
سرح ودموع العين مبتدرًا ويذكر ماضى عهدهم فأشدُ

ودعاه كاتب الدولة الوزير أبو العباس احمد الغسانى لحضور مجلسه فقال:

---

(١) ابن خلدون:العبر مج٦، ج١٢،ص٦٥٥، الزركشى: المصدر السابق،ص٣٦.

(٢) الزركشى: المصدر السابق ص٣٦.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٦-٣٧، ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٥٦، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة الأدب التونسى، صـ١٩٥.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٧.

ياسايق الناس إلى غاية ... فى ذيلها بغير صوب الغمام
إخوانك الكتاب يرجون ان ... يلقى بكم شملهم ذا أنتظام
فاطلع على الشرب فهم انجم ... مرتقبات منك بدر التمام
وسرهم منك بسير المنى ... وزرهم عند اختلاط الظلام

فبعث الليانى:

دام لإخوانى بلوغ المنى ... فى حفص عيش وحميد انتظام
وقرب الدهر كل ما ... راموه من أنيس بغير انصرام
فى لذة معسولة المجنى ... وغيطه موصولة بالدوام
ما أشواق الصب الى انكم ... وأشفق اللب بذاك المقام[1]

واستمر الوزراء ينشدون لبعضهم البعض مما أثرى الحياة الأدبية فى عهد السلطان المستنصر وهذا يدل على ما وصلت له الحياة الأدبية بفضل الوزراء والأدباء

ومن الأدباء الذين برعوا فى الشعر فى عهد المستنصر هو أبو الحسن حازم القرطاجنى حيث كان من الأدباء جازمًا من أفراد الشعراء العربية وكتابها على الإطلاق فى هذا الطور من أطوار الأدب[2] وكان أسلوبه فى الكتابة شبيهًا بأساليب الكتابة فى القرن الثانى والثالث للهجرة فكان شعره بريئًا من التصنع متماسكا حصيفًا واضح المعالم فلا تقصير يشينه وكان شاعرًا فى نثره فقال عن السلطان المستنصر ((ملك جمع له العلم والعمل وطلع على الأيام طلوع

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة الأدب التونسى، صـ١٩٥ - ١٩٦

(٢) المقرى: أزهار الرياض، ج٣، صـ١٧٧-١٧٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٧، احمد بن عامر: المرجع السابق، ص٧١.

الشمس فى الحمل فقام به وأمان واعتدل أشرقت إشراق الصباح فضائله وتدفقت تدفق السحب أنامله وانقسمت بين نفع الفاة وضر العداة شمائله ووسعت أرباب النهى وطلاب اللهى نوافله فطفر بها أمله ومن شعره.

فـــا العلـــم جنانـــه والـــرزق مـــن بنانـــه
والـــصبح مـــن ثنـــاه والـــشمس مـــن عيانـــه
والـــبرق مـــن ظبـــاه والريـــاح مـــن عنانـــه[١]

وهى قصيدته المشهورة «المقصورة» المشتملة على ألف بيت والمهداة إلى المستنصر، فمن خلال الأغراض المطروحة فى تلك القصيدة والمخصصة لذكر الديار المهجورة وصف العاصفة والجمل ومدح السلطان وقصوره وجيوشه[٢] وتوفى فى شهر رمضان سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م[٣].

ومن الأدباء الذين أثروا فى الحياة الأدبية فى العصر الحفصى إبان فترة حكم السلطان أبى زكرياء الحفصى هو عنان بن جابر[٤] ونتيجة لخلافات قبيلته مع السلطان ووزرائه، رحل مع قبيلته إلى المغرب الأوسط خارجين على السلطان

(١) الهادى العامرى: المرجع السابق،ص٧١.

(٢) المقرى: أزهار الرياض ج٣، ص١٧٧-١٧٨، ابن القاضى: درة الحجال، ج١، ص٢٢٠ الحنبلى: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨٧-٣٨٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٨، أحمد الطويلى: الحياة الأدبية: بتونس فى العهد الحفصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، تونس، ١٩٩٦، ج٢، ص٣٦٧.

(٣) المقرى: أزهار الرياض، ج٣، ص١٧٢، برنشفيك: المرجع السابق ج٢، ص٤٢٨ عن أشعاره راجع المقرى: أزهار الرياض ج٣، ص١٧٢-١٨٦.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٤-٤٢٥، حسن حسنى عبد الوهاب: تاريخ الأدب التونسى، ص٢٠٢.

وكانت علاقة الأديب عنان بن جابر مع الوزير أبى عبد الله ابن أبى الحسين قوية ومتينة وجرت بين الوزير والكاتب الأديب الشاعر عنان بن جابر أشعار وقصائد متبادلة[١] يحث الوزير فيها عنان بالعودة إلى تونس، وبرغبة فى مراجعة السلطان أبى زكرياء فأجابه عنان بقوله:

خليلى عوجًا بين سلع وحاجر ... يعوج عناجيبح فواج ضوامير
قلاص خماص شازبات عرامس ... مواض نواض مرقلات عوابر
طوال الهواوى عند كل تنوفة ... هملعه الاطراف هدل المشافر
وعوجًا على دار لنا فى جنابها ... أفاتين لهو دائم غير دائر

ومنها:

فمن كان منا نال عزًا وضعه ... ومن حاد دسنا أرضه بالحوافر
وفى الأرض أوطان ومأوى ومسرح ... وفى الناس من يرجى لدفع الضرائر[٢]

وكان أيضا من الوزراء الأدباء هو ابن سيد الناس(*) الذى تولى حجابه

---

(١) هو عنان بن جابر بن جامع زعيم قبيلة براداس بن بنى سليم النازحين إلى افريقية منتصف القرن الخامس، وكان من ملوك بنى حفص يصطنعون رجالات مرداس لأبنائهم بديوان ضدهم، وكانت لهم على ذلك صلات وفوائد وكان رؤساؤهم يقيمون بالحاضرة فى خدمة السلطان راجع: حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب الأندلسى صـ٢٠٢.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: تاريخ الأدب التونسى، ص٢٠٢-٢٠٤.

(*) هو احمد بن أبى بكر بن سيد الناس العمرى من بيوت اشبيلية: حافظًا بالحديث راوية له. ظاهريًا فى فقه على مذهب داود وأصحابه، وكانت لأهل اشبيلية خصوصًا من بين الأندلس صلة بالأمير أبى زكرياء عبد الواحد وبيته رحل إلى تونس مع عائلته ونشأ هو وأخيه مع والدهما فى الدولة راجع ابن خلدون:العبر، ج٦، ج١٢، صـ٦٨٦ -٦٨٤.

ووزارة ولى عهد السلطان أبى إسحاق إبراهيم، حيث برع فى الأدب وكان أديب محدثًا بليغًا، وكان هذا الأمر يضايق بشده وزراء السلطان أبى إسحاق إبراهيم، فحدثه بطانة السلطات وجرت الوشاة بين الوزراء للتخليص من ابى سيد الناس فكانت الحجة فى ذلك الأمر قوية فأوغروا السلطان بأن الأديب الحاجى ابن سيد الناس يسعى مع أبنه من أجل قلب نظام والاستيلاء عليه(١) وقام السلطان على الفور باستدعاء ابن سيد الناس إلى رأس الطابية فجاء مسرعًا، فلما حضر،خرج عليه رجال السلطان وشهروا سيوفهم، فأيقن بالموت، فقتل على حاله، وحفرت له حفرة رمى فيها(٢) فى يوم الأحد عشرين من ربيع الثانى ٦٧٩هـ(٣).

ومن الأدباء الذين تولوا منصب وزير الإنشاء (القلم) عبد الوهاب بن أبى عبد الوهاب ابن قائد الكلاعى، حيث تولى هذا المنصب للسلطان أبى إسحاق إبراهيم(٤) فكان ذو الهمة المتعلقة بالكواكب وصدر الفحول إذا تزدهم للكلام فرسان المواكب وله فى ذم كاتب جاهل أنهل فى تلك المناهل:

عنيت زمانى فى أمور كثيرة وإنى عليه ما حببت لعاتب
اليس بحق أن تذم صروفه وكاتب صرف الدهر بالسين حاجب(٥)

(١) ابن خلدون:العبر، ج٦، ج١٢، ص٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص٤٤.
(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص٤٤، المطوى:السلطنة، ص٢٤١.
(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص٤٤ ابن خلدون: العبر، ج٦، ج١٢، ص٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص٤٤.
(٤) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق: ص٤٤.
(٥) ابن الأحمر: مستودع العلامة، صـ٣١.

واستمر الأدباء الوزراء على مقربة من السلاطين الحفصيين وتولوا أهم المناصب فى عهد سلاطين الدولة الحفصية، وظلت علاقاتهم مع الوزراء والسلاطين بين الشد والجذب[١] وتولى الأديب الشاعر أبو القاسم احمد بن أبى يحيى بن الشيخ الأنصارى وزارة القلم للسلطان الراعى ابن أبى عماره واستمر بمنصبة حتى نهاية دولة الداعى[٢] متمتعًا بمنصب الوزير والحاجب[٣] واستمر فى منصبة عندما اعتلى عمر بن أبى زكرياء بن عبد الواحد الحفصى العرش يوم الأربعاء ٢٦ ربيع الثانى ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، فهرب الحاجب الوزير الأديب الفقيه أبى القاسم بن الشيخ عندما علم ذلك فى بداية الأمر خوفًا من التنكيل والقتل، فأرسل إلى السلطان مستعطفًا متشفعًا فرد عليه السلطان قائلًا حاجتنا إليه أعظم من حاجته إلينا، وتفويت مثله أو إبعاده لا فائدة فيه إلا الندم، وفعلًا جاءه الحاجب ابن الشيخ فسكن روعه وأمنه وقربه ولازم خدمته عشر سنين[٤] حتى توفى عام ٦٩٤هـ[٥].

وهذا يدل على مدى تقدير السلاطين للأدباء والعلماء وكذلك سار على نهجه وزرائه.

---

(١) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص٢٢٧

(٢) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢ ص٦٩٢، الزركشى: المصدر السابق،صـ٤٧،ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص٣٢-٣٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٩٢.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٤٦، المطوى السلطنة، ص٢٦٥-٢٦٦، ابن خلدون: العبر، ج٦، ج١٢، ص٧٠٨-٦٠٩، ابن الشماع: المصدر السابق، ص٨٢.

(٥) ابن القنفذ: الفارسية: صـ١٥١.

وقد استبحر الأدب فى عهد الدولة الحفصية استبحارًا وزخر زخرًا بعيدة المدى بتونس حتى كان الملوك والوزراء يوجهون نداءاتهم للجيوش وللرؤساء بلسان الشعر، وقد كتب السلطان المستنصر لوزيره أبى عبد الله بن الحسين يأمره بإحضار الجنود لأخذ أرزاقهم بقوله

ليحضر كل بيت ذى منال زكا فرعا لإسداء النوال
غدا يوم الخميس فما شغلنا بأسد الوحش عن أسد الرجال[1]

وبرع الشعراء المحليون الأكفاء بجانب الأندلسيين والمغاربة الذين وردوا على الدولة الحفصية، من الشعراء المحليين ابن الشباط الذى ألف ثلاثة شروح لبعض القصائد الرائجة سوقها آنذاك، ومعارضة شعرية لقصيدة الشقراطسية التى نظمها احد شعراء تونس من قبله - بمائتى سنة[2] واستمر الأدب فى ازدهاره طوال أطوار الدولة الحفصية سواء كانت أطوار ضعف أو ازدهار، فنجد أن السلاطين الحفصيين ووزراءهم دائما مشجعين للأدب والأدباء، فنجد السلطان يستخدم المداعبات الأدبية الرائقة اللطيفة التى تبرهن عن شغف السلاطين والوزراء بالأدب وعنايتهم به، حيث دخل الأديب الفقيه محمد بن يحيى ابن الحباب التونسى المتوفى سنة ٧٤١هـ. على السلطان أبى عصيدة فوجده قد أكل فأنشده أبو عصيدة مداعبًا:

لقد فاتك الحدى يا ابن الحباب يخ: تمدد كثير اللباب
ولم يبق منه سوى عظمة وذاك لعمري الكلاب

(١) الهادى العمرى: المرجع السابق،ص٧٧.

(٢) برنشيفك: المرجع السابق،ص٤١٩

فلما وصل فى إنشاده إلى قولة طعام بادره الفقيه ابن الخطاب فقل به طعامكم طعامكم[١]

وكون الأدباء والعلماء فئة اجتماعية مميزة داخل المجتمع الحفصى يرفعهم إلى هذه المنزلة علمهم، على الرغم من اختلاف النظرة إلى العلم اختلفت من فئة لأخرى، فكان العلم والتفقه والقراءة والشعر هما المفتاح للوصول إلى السياسة والرئاسة والتزهد[٢] واشتدت علاقات الوزراء والأدباء بسلاطينهم بشدة، فنجد أن السلطان ابن اللحيانى الذى جعل أبو الفضل التيجانى وزيرًا للقلم بعد أبيه وجده[٣] لأنة كان شاعرًا بليغًا وكاتبًا عظيمًا فكان عالى الصيت فى العلم والأدب وتميز فى فن الرسائل، وخدم فى الدولة الحفصية بآرائه وقلمه فى أيام السلطان أبى عصيدة ثم السلطان أبى يحيى زكرياء اللحيانى ثم ابنه السلطان محمد الملقب بأبى ضربة، فكان أبو الفصل كاتب سر هو مدير أمره[٤].

ومات أبو الفضل شهيدًا فى الدفاع عن سلطانة ومن رسائله إلى ابن عمه عبدالله التيجانى حين ذهب إلى الجهة الحقوية من تونس:

سحقًا لو قضى بتأليف لغدا مكان الإلف غير سحيق

(١) الهادى العمرى: المرجع السابق ص٥٨.

(٢) البرزلى: فتاوى، ج٦،ص٢٧٠.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص٦٣، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى، ص٢١٠.

(٤) التجانى: الرحلة، ص١٠، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٢١٠.

أقصى ولولا مادعوه أبا الورى ... لقصفتة ويقل فيه عقوقى
أعليه نذر يفى به ... ان يحقب التجميع بالتصريف
لم أنس سيل الدمع يوم فراقنا ... وغرينا متمسكا بغريق[1]

ومن شعره يصف موضعا بواحه قابس

اذكر عشيتنا بساحة عنبر ... والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا ... بسطًا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحى فتستر وجهها ... عنا بستر للعروس محبرً
يوم بقابس جنة الدنيا وفى ... قلبى لوشك البينى حرقة مسفر[2]

وكان عبد الله بن محمد بن احمد التجانى من كبار كُتاب دواوين الدولة الحفصية وفحول رجالها، تقلب مثل أسلافه فى الوظائف الحكومية ورافق الوزير، ونشأ فى أسرة تونسية علمية راقية، ودرس على فحول الادباء والفقهاء والمجيدين[3] فى عصره، ثم تقلب فى الوظائف الحكومية، ورافق كبير وزراء الدولة ابن اللحيانى فى سفره لتفقد شئون المملكة، فتجول معه فى الجهات الشرقية والجنوبية من البلاد التونسية مده عامين ونصف أولها سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م، وتجول صحبة إلى تونس وأقام بها مدة ثم عاد وحده إلى حضرة تونس، وألف رحلته المشحونة بوصف الجهات والحدائق التى زارها،

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٢١٠.
(٢) التجانى: الرحلة، ص (كب)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٤١١-٤١٢.
(٣) التجانى: الرحلة:ص (كو)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٢١٢.

وذكر تاريخ كل واحده منها قديمًا وحديثًا مع تراجم الرجال النابغين[١].

وكانت العلاقة القوية بين عبد الله بن محمد التجانى وكبير الوزراء علاقة وثيقة حيث شجعه أثناء فترة التجول فى الناحية الجنوبية على تأليف أمتع الرحلات وأكبرها فائدة لمن يبحث عن ماضى البلاد التونسية[٢] وانعكست علاقات الوزير الأكبر مع الأديب الرحالة التجانى، حيث اهتم السلاطين والوزراء الحفصيون بأدب وفن الرحلة[٣].

وعندما عاد كبير الوزراء إلى تونس وتمت له البيعة فى٢ رجب ٧١١هـ/ ١٤ نوفمبر ١٣١١م ودخل الفضية وتسلم زمام الأمر، فأول شيء عمله، هو تقريب ابن التجانى إليه، وعهد كاتب سهره القديم برئاسة دواوين رسائله، وهى خطة العلامة الكبرى أى وزير القلم[٤] وقام الوزير عبد الله التيجانى بالمهام الملقاه على عاتقة على احسن وجة وظل هنا الوزير الاديب يخدم بعملة وعلمه وقلمه البلاد، ويؤلف من حين إلى آخر التصانيف المفيدة[٥] فى الحديث النبوى والادب واللغة ولة قصيده ذات صبغه وعظية صوفية جعلها خاتمة لرحلته:

---

(١) ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص٣٤، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى ص٢١٢

(٢) التجاني: الرحلة، ص (كو)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى ص٢١٢-٢١٣، خلاصة تاريخ تونس، ص١٣٨.

(٣) برنشفيك:المرجع السابق، ج٢، ص٤١٦.

(٤) التجاني: الرحلة، ص، الزركشى: المصدر السابق، ص٦٣، حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات، ج٣، ص١٧٠-١٧١.

(٥) التجاني: الرحلة، ص(لد) عن مؤلفاته، راجع الرحلة من ص(لح – مه).

كم أنت فى اللذات ذو استغرق ... ونذير شيبك مؤذن بفراق
ولقلما يخدى الحتاب إذا أتى ... داعى الحمام وقيل هل من راقى
بادر إلى التقوى بدار مسارع ... وانهض الى الطاعات نهض سباق
حدثت نفسك بالبقاء ولم يكن ... فى هذه الدنيا ليبقى باقى

ومنها

يأيها الانسان إنك كادح ... كدحًا وأنت كدحت ملاقى
والمرء مجزى بما هو فاعل ... وجزاؤه جار على استحقاق
لله اقدامًا أطاعوا ربهم ... ووفوا بما اعطوه من ميثاق[1]

فكان السلطان اللحيانى محبًا للعلماء والأدباء منذ أن كان كبيرًا للوزراء أثناء فتره حكم السلطان أبو عصيدة[2] فقرب إليه أيضًا الأديب أبا إبراهيم إسحاق بن حسينة التونسى، من فضلاء الكتاب وأحذق الشعراء، خدمه بقلمه دواوين الإنشاء بالدولة الحفصية، وكان صحبة الوزير الأكبر أثناء هروبه إلى الشرق عام ٧٠٦ هـ وكان مع التجانى أثناء هذه الجولة وقال عند توديعه لمخدومه الحفصى وقد فارقه أثناء سفره للمشرق:

سخا بنفسى على إيثار صحيتكم ... يوم الوداع ومالى منكم خلف
أكفها عن مجاريها فيبعثها ... حاد من الوجد بحريها فلا تقف
خلالها زمرة تشتد طالعة ... تكاد من مرها الاضلاع تنقصف
علم اليقين بانى ان صحيتكم ... أدوى وشبكا لم يمهلنى التلف
فقلت ما صحبة وان تصرمها ... بمدى بفرقة وقت ماله طرف

(١) حسن حسنى عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسى،صـ٢١٣
(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٢٠، المطوى: السلطنة، ابن الشماع: المصدر السابق، صـ٨٦، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصه تاريخ تونس، ص١٣٨.

وفى رجـــومى رجـــاء للبقـــاء بـــه أرجو حصول التلاقى حين تنصرف[١]

ومع شدة حب الوزير الأكبر السلطان الحفصى ابن اللحيانى للعلماء والأدباء ومشاركته لهم وحرصه الدائم على التقرب إليهم ولكنه ارتكب جريمة حضارية لا يغفرها له التراث الحضارى والثقافى فى التاريخ التونسى خاصة والإسلامى العربى عامة،وذلك عندما عزم على مغادره البلاد بعد أن سادت أحوالها جمع الأموال وباع جميع الزخائر فى القصية حتى الكتب التى كان أبو زكرياء الأول جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للكتبين فبيعت بدكاكينهم، وهكذا أفرغ خزانة الدولة ذخائرها كما بدد ثروة لا تقدر بثمن من الكتب والتأليف التونسية وما أتى به المهاجرون الأندلسيون منذ عهد السلطان أبى زكرياء الأول[٢].

وكان القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى من أهم قرون ازدهار الأدب أيضًا حيث بلغ الإنتاج الأدبى والفكرى ذروته[٣] حين حرص السلاطين الحفصيون ووزراؤهم على أن يكون لديهم شعرائهم الرسمين الملحقين ببلاطهم[٤] حين كان معظم السلاطين والوزراء محبين للأدباء والعلماء مثلما كان السلطان أبو يحيى أبو بكر الذى كان هو ووزراؤه محبين

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسى، ص٧١٤-٧١٥.

(٢) بن خلدون: العبر، ج٦، ج١٢، ص٧٤٩، الزركشى:المصدر السابق، ص٦٣-٦٤، ابن الشماع: المصدر السابق، ص٨٦.

(٣) البلوى: تاج المفرق، ج١، ص٥.

(٤) برنشيفك: المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٩.

للأدباء والفقهاء والصالحين[١] وكان الوزير ابن تافراجين من الوزراء الذين سيطروا على مقاليد الحكم وجعل السلطان الطفل المستنصر بالله ومعه احد الأدباء الذين قربهم الوزير إليه حيث جعل الأديب الفقيه المعلم الشيخ محمد ابن نزار على قياده الجيش فى معركة مرماجنة[٢].

كما كان السلطان أبو العباس احمد ووزرائه محبين للعلم والعلماء والأدباء والفقهاء، فجعل لهم مجلسًا بالحضرة يحضره كثير من الأدباء والفقهاء ووزرائه السياسيين[٣] ووزراء القلم لدية فكان أول من كتب له وتولى وزير للقلم هو الفقيه الأديب أبو زكرياء ابن الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن وجاد الكومى القستنطينى وطالت فى ذلك مدته إلى أن توفى فتولى بعده الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن حجر، وكذلك كتب له الأديب الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد عبد الكريم بن كماد من كبار قسطنطينة[٤].

وكانت تلك الفترة من أهم الفترات التى كثر بها الأدباء الشعراء فمنهم محمد بن عمر المليكشى وزير الإنشاء للسلطان أبى يحيى أبو بكر،توفى هذا الأديب الوزير عام ٧٤٠هـ١٣٣٩م وكذلك ظهر أدباء آخرين مثل محمد بن عبد الله الهوارى واحمد بن عبد الله الرصافى ومحمد بن رأس الحجلة وكانوا جمعهم من مشاهر حملة الأقلام فى الدواوين الحفصية ونال واحد منهم إشعار

(١) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٨٨.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ج١٢، ص٨٣٠.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص١٠٦-١٠٧، ابن القنفذ:الفارسية: ص١٧٧.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص١٠٧، برنشفيك: المرجع السابق، ص٢١٩.

مدونة فى أغراض الشعر المتنوعة[١].

وكان من علماء وأدباء تونس محمد الظريف الأديب العالم فكان من صلحاء تونس المشهورين فكان بارعًا فى جملة فنون منها الموسيقى وارتبط بعلاقات قوية مع السلطان الحفصى أبى العباس احمد ووزرائه، وله إشعار رائقة فى تهذيب الأخلاق والموعظة الحسنة ومن قصائده فى الوعظ.

قم من منامك واسل العجز والكسلا ... وانظر لنعمة خلاق وما فعلا
النوم موت فلا تعبأ بلذته ... واحفظ حياتك لاتبغى بها بدلا
ان المنام لنفسى القلب سكرنه ... ويكسب الجسم من افراطه يمكلا

ومنها فى وصف الروض:

أما ترى الليل إذ ذكر الصباح على ... جيوشه تبعًا فى جبنه أفلا
والروض أصبح ويجلى فى ثملائله ... وأشد الطير فوق الغصن وارتجلا[٢]

ومن أشهر الكتاب والأدباء الذى تولى منصب وزير الإنشاء هو العلامة المؤرخ الشهير والفيلسوف ابن خلدون[٣]حيث تولى وزير الإنشاء للسلطان

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١٣٩.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص٢١٦-٢١٧.

(٣) ترجع أصول ابن خلدون إلى مدينة أشبيلية حيث عاش أجداده الأوائل ثم انتقلوا إلى تونس فى أوائل القرن السابع، فأستقر بتونس أبو الحسن بن خلدون وتأصلوا بها وتولوا اعلى المناصب وكانوا أجمل علم وثقافة رقيقة حيث اهتموا بالعلوم العقلية وعلى دربهم سار ابن خلدون راجع: ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٣، ص٤٩٧-٤٩٨، ابن القاضى: جذوة الأقياس، ص٤١٠-٤١١، سعد زغلول عبد الحميد: ابن خلدون مؤرخًا، مجلة عالم الفكر، صادره عن وزاره الإعلام الكويتية، ج١٤، العدد الثانى، الكويت ١٩٨٣، ص٤٥-٤٦، محمد عابد الجابرى: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معلم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى،

للسلطان أبى إسحاق إبراهيم الحفصى، فكان ابن خلدون ضليعًا فى فنون الأدب والتاريخ حتى صار أعظم رجال زمانه، فأكرمه السلطان وتولى منصب وزير الإسكان فى بيجاية حتى قتل سلطانه فى حرب مع اخيه سلطان قسنطينة الحفظى وقربه اليه،قيام ابن خلدون بتسليم المدينة[١] وظل يدرس العلوم بجامع الزيتونة، وانتفع به جمع علماء تونس، فقدم إليه كتابة المشهور العبر وله عدة قصائد فى شكوى الزمان.

إلى كم مقامى حيث لم ترد الغلا ... مرادى ولم تعط القياد ذلول
ويذهب لى مابين يأس ومطمع ... زمان بنبل العلوان بخيل
تعللنى منه أمان فوادع ... ويؤنسنى منه أمان مطول
أما الليالى لا ترد خطوبها ... ففى كبدى من وقعت فلول[٢]

وكان السلطان أبو فارس عبد العزيز ووزراؤه من الذين اهتموا بالأدباء والعلماء موقرين لهم[٣].

فجعل الأديب الكاتب محمد بن قاسم بن الحجر وزيرًا للقلم[٤] ثم قرب

مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان،١٩٩٤، ص٢٣-٢٥، طه حسين: فلسفة ابن خلدون، ص١٧-١٩.

(١) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ص٢٢.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٢١٨-٢١٩. خلاصة تاريخ تونس، ص١٤٥-١٤٦.

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١١٣، الزركشى: المصدر السابق ص١١٥، ابن دينار، المصدر السابق، ص١٧٥.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص١١٥، ابن الشماع: المصدر السابق، ص١١٣، برنشفيك:

إليه الفقيه الفاضل الأمان الشامل المتفنن فى العلوم العالم بالمنشور والمنظوم المحصل الأسد أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الأجل المدرس عبد الله القلجافى من كبار بيوتات باجة العلماء[١] وكان الفقيه الحجة أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمى من أشهر فقهاء وأدباء هذا العصر الحفصى وتوفى عام ٢٤ جمادى ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م ومن إشعاره.

علمت العلوم وعلمتها ونلت الرئاسة بل حزتها
وجعلك سنينى عددتها بلغت الثمانين بل حزتها
فهان على النفس صعب الحمام
فلم تبق لى فى الورى رغبة ولا فى العلا والنهى بغية
وكيف أرجى ولو لحظة وأجاد عصرى مضوا جملة
وعادوا خيالًا نظيف المنام
ونادى الردى ولا لى مغيث وحت المطية كل الحثيث
وأنى لراج وحبى أتيت وأرجوبها نيل صدق الحديث
بحب اللقاء وكره المقام
فيارب حقق رجاء الذليل ليحضى بدارك عما قليل

وكان رحمة الله، إمامًا فى العلوم صنف كثيرًا منها فى جمع أنواع الآداب والعلوم[٢].

وازدهرت الحياة الأدبية فى عهد وزارة أبى عمرو عثمان، حيث قرب إليه

المرجع السابق، ج١، ص٢٤٢.

(١) الزركشى: المصدر السابق ص١١٥، ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص٢٣١، القلصادى: الرحلة، ص٣٤، برنشفيك، المرجع السابق، ج١، ص٢٤٢.

(٢)الزركشى: المصدر السابق، ص١٢١-١٢٢.

الأدباء والشعراء وكان أشهر الأدباء والشعراء هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف شهاب الدين، فكان يعيش فى دائرة السلطان أبى عمرو عثمان، فقربه إليه السلطان والوزراء فكان خاتمة فحول الشعراء فى هذا الدرر وغلب على شعره التشبيه المحكم والبديع الرائق، مع تنميق فى العبارة وانسجام فى اللفظ ورقة فى المعنى.

فقال من قصيده يصف طلوع الفجر على روض

وغابت علامات الدجى السود وعندما ... تراءت لها رايات شمس الضحى الشمط
وجعـــاك ســـنينى عـــددتها ... بلغـــت الثمانـــين بـــل حزتهـــا
وسلق جمين البرق فى الشرق صارمًا ... تفدبـه اتـراس سـحب الحيـا الحـط
وهـزت يـد الإشراق شـمس شـعاعها ... فيـان يقـود الـرجن مـن المعهـا وحـظ
وولـت نجـوم الليـل والـصبر خلفـا ... كـأمواج بحـر فـذ تكتنهـا شـمط[1]

وبعد وفاة أبى عمرو عثمان دخلت البلاد دوامة من الحروب والصراعات وكانت مطمعًا للهجوم الخارجى وكثرت عمليات القتل بين خلفاء أبو عمرو عثمان، وكثرت الاضطرابات، ولجاء السلاطين الضعاف إلى اللهو والملذات[2] وقام الاحتلال الاسبانى والمتواطئون معهم من الحفصين من تدمير المدينة فقاموا بتمزيق التراث التونسى وحرق ما يقع بين أيديهم من كتب ومؤلفات عظيمة ونهبوا الدكاكين وارتكبوا كل أنواع المحرمات[3] فخرج الأدباء

(١) حسن حسنى عبدالوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص٢٢٤ – ٢٢٦.
(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٣٠٩-٣١٠.
(٣) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٧، ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص٢١١، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسى، ص٢٣٠.

فخرج الأدباء يعيرون مآسيهم، فقام الأديب العالم ابن سلامه يوصف أحوال البلاد فى قصيدته يندب فيها أطلالها ويذكر أيامها المزدهرة وكيف تحولت الأحوال[١] وكان ابن عبد السلام أبو الفتح من الأدباء الذين ظهروا إبان تلك الفترة، فظهر قصته واشتهر باعه وشاع ذكره وانتفع الناس بعلمه وأدبه وهاجر إلى دمشق وأسقر بها ومن شعره قصيده بعث بها من الشام إلى أهله يتشوق إلى وطنه ويذكر مفاخر تونس.

سلو البارق النجدى عن سحب أجفانى ... وعما بقلبى من لواعج نيران
فيا طالما الأسحار ما قد تكلفت ... بإنعاش أشواقى إليكم واشجانى
وتنفيس كرب عن كئيب يتم ... يحن إلى أهل ويصبوا لأوطان
فله ما أذكر شذا نسمة الصبا ... صباحًا إذا مرت على الرفد وليان

وسارت سير الشمس وهنًا فأصبحت من الشرق نحو الغرب تجرى بحسبان[٢] وتميزت هذه الفتره يتراجع كبير فى الناحية الفكرية والثقافية بسبب انشغال السلاطين ووزرائهم بعروشهم المتداعية[٣].

وتعددت أغراض الشعر فى العهد الحفصى حيث مدحوا الخلفاء والأمراء والوزراء واتسمت مدائح الشعراء بسمة التجديد فى المعانى المدحية فقد ظهرت بالإضافة إلى الصفات التقليدية وسموهم بالشجاعة والجرأة والإقدام فى الحروب والإيقاع بالأعداء والجود وحسن الأخلاق وأصالة الفكر، وكان

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٨٦.
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسى، ص٢٣١-٢٣٢.
(٣) أبو الحسن على القلصادى: رحلة القلصادى، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٥، تونس، ص٢٣، محمد عايد الجابر: فكر ابن خلدون، ص٣٠٠.

هؤلاء الشعراء لسان الدعوة الحفصية ومبادئ المهدى من تومرت ونراهم يواكبون أهم الأحداث السياسية والحربية والثقافي التى عاشتها الدولة الحفصية فجعلوها فى قصائدهم المدحية وأشاروا إلى الفتن والمعارك التى خاضها السلاطين والوزراء الحفصيون ومجدوا المنشآت الثقافية والعمرانية[١].

فنجد الشاعر الأديب حازم القرطاجنى بمدح السلطان أبا زكرياء فيقول

مصطفى الأرومة من ... غالب ومنتخب
قد سما الى مصفر ... فى العلا له نسب
حده الرضى عمر ... صارم الهدى الذرب[٢]

وله قصيده فى المستنصر

أمن بارق أودى بجنح الرجى ... تذكرت من حل الأبارق فالسقطا
وبان ولكن لم يكن بينى عنك ذكره ... وشط ولكن طيفه عنك ما شطّا[٣]

وهناك مدح للانتصارات العسكرية والمدح بالخصال الفكرية والمدح يشيد المنشآت العمرانية ومدح الوزراء والأدباء والعلماء وهناك المدح النبوى[٤] وانتشرت القصائد الاخوانية بين الأدباء والوزراء مثلما كان الوزير

(١) أحمد الطويلى الحياة الأدبية بتونس فى العهد الحفصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، ج٢، ١٩٩٦، ص٣٦٥-٣٦٦.
(٢) المقرى: أزهار الرياض، ج٣، ص١٧٧-١٧٨.
(٣) احمد الطويلى: الحياة الأدبية، ج٢، ص.٣٦٧
(٤) احمد الطويلى: الحياة الأدبية، ج١، ص٣٨٧.

الوزير احمد الغسانى وعلاقاته الوطيدة مع زمرة من الأدباء وكان يمازحهم ويقارضهم شعرًا فى موضوعات أدبيه مختلفة(١).

كما ظهر هناك فن آخر من فنون الشعر يكتسى صبغة شعبية كبرى، وقد كان أهل أفريقية يتعاطونه فى عصر ابن خلدون، يعرف باسم الملعبة، فانتشر هذا الفن على نطاق واسع إلى أن وصل إلى المغرب الأقصى وكان رثاء الخلفاء والأمراء والوزراء من أهم مميزات الشعر الحفصى. فنجد من الشعراء من يرثى احد الوزراء فنجد الأديب الشاعر بن سعيد يرثى أحد وزراء السلطان أبى زكرياء وهو الوزير ابن جامع وفيها مبالغة تدل على تكلف وجزع متصنع.

فيقول:

ألا فـــانتظروا ومعـــى فـــأكثره دم ولا تـــذهبوا عنـــى فـــانى ذاهـــب

وفى القصيدة يعدد الأديب والشاعر ابن سعيد فى مرثيته خصال الوزير الفقيد ويعد عن مدى الخسارة الفادحة والمصيبة العظمى بوفاة هذا الوزير(٢) وكذلك ظهرت أبيات فى رثاء القائد هلال الذى كان يحمل صلاحيات الوزراء فى عهد السلطان المستنصر ولأنه كان يراعى ويقرب إليه الأدباء(٣) فيقول احد الأدباء يرثيه.

وقالوا اثبت المجد؟ قلت لهم:نعم وثانى لـه حزنى عليه إلى الحشر
ولو كنت حياه يعده لرثيته ولكن روحى سابقته إلى القبر

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٤٣١.
(٢) محسن حامد العيادى: ابن سعيد الأندلسى، ص٢٧٦-٢٧٧.
(٣) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٢٧.

وكان هذا الرثاء يغلب عليه التصنع وينعدم فيه الشعور والصدق ويقوم على عنصرين: تعديد مزايا وتصوير الانفعال الشخصى بموته[١].

ونال الأدباء والعلماء قسطًا كبيرًا من الرثاء للعبير عن إحساس صادق وتأثير بالغ بموت أشخاص كان لا يخلون من قيمة علمية لو كان وليدًا عن شعور بأداء الواجب إزاء أستاذ أو أديب ومن أهم وأشهر مرثيات الأدباء فى العهد الحفصى وعلمائه هى رثاء أبى الفضل التيجانى لشيخه أبى محمد بن عبد الحميد أبى الدنيا الصرفى الطرابلسى فى ثلاثين بيتًا وقد برع الراثى فى هذا الرثاء فيقول:

أطلق دموعك ولتدع إمساكها ... قد حل خطب ناثرا أسلاكها
وأتى الزمان بنية بالزراء الذى ... أسر النفوس فما ينطق فكاكها[٢]

وقد حرص السلاطين الحفصيون والوزراء أيضًا على توديع الفقهاء والأدباء والعلماء إلى مثواهم الأخير لتشييع جنائزهم، فنجد السلطان أبا عمرو عثمان يخرج هو ووزراؤه لتشيع جنازة العالم احمد القلشانى[٣] وتعددت أنواع وأغراض الشعر فى رثاء المدن والهجو والغزل بين الأدباء الحفصيين[٤].

(١) أحمد الطويلى: الحياة الأدبية، ج٢، ص٤٠٤.

(٢) احمد الحبيب بلخوجة: أبو الفضل التجاني كما يصوره ابن رشيد فى رحلته فصل صدر بالنشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين العدد١٩٧١،١، ص٢٦٩-٢٧٠، أحمد الطويلى: الحياة الأدبية، ج٢، ص٤٠٤.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص١١٦، ابن دينار:المؤنس، ابن أبى الضياف: أتحاف الزمان، ص١٨٩، احمد بن عامر: المرجع السابق، ص١١٠.

(٤) احمد الطويلى: الحياة الأدبية،ج٢، ص٤٠٧-٤١٠، ٤١٣،٤٢٧.

وازدهر النحو والنثر الفنى فى الدولة الحفصية أيضًا حيث كان للوزراء القلم انجازات هامة فى مجال النثر وكثرت المؤلفات[١] وكان ديوان الإنشاء مصدرًا هامًا لتطوير أسلوب الكتاب والاعتناء بالرسائل السلطنة وتفننوا فى رسائلهم فكانت تحتل الأمثال والإشارات البلاغية والمحسنات البديعية من طباق ومقابلة وتصريح وترجيع وهذا ما ظهر فى رسائل التيجانى النثرية[٢].

وظهرت شاعرات تونسيات فى عهد الدولة الحفصية وكانت موضع اهتمام السلاطين الحفصيين ووزرائهم منهم زينب التيجانية فكانت شعره عارفه بقوانين الصناعة متمكنة من الأدب،خيالها واسع لأنها تربت فى بيت عريق فى العلم والأدب[٣] ومن شعرها.

إذ ســـــدلت ذوابئهـــــا عليهـــــا رأيـــت البـــدر فى افـــق الـــسواد
فـــأن الـــصبح مـــات لـــه شـــقيق فمـــن حـــزن تـــسربل بالحـــداد[٤]

وكذلك برعت أم العلاء العبد ربه فكانت حافظة للقرآن،بارعة فى العلوم، مليحة الخط،تجتمع بالندوات العلمية وتناضل فى المسائل المهمة، وعملت بالحاضرة فى بلاط السلاطين الحفصين فكانت موضع اهتمام من جانب وزرائهم[٥] وكانت سارة الحلية من أدبيات هذا العصر الزاهى واشتهرت بالأدب الغض والعلم الجم والفن الرائع وفدت على السلطان المستنصر فى قصر أبى فهر فسلمت عليه وأنشدت بين يديه قولها فيه:

---

(١) برنشفيك: المرجع السابق،ج٢،ص٤١٩.٤٢٠

(٢) التجاني:الرحلة،صـ٢٨٧ -٨٨

(٣) حسن حسنى عبدالوهاب: شهيرات تونسيات، ص١١٠ -١١.

(٤) المرجع السابق، ص١١١.

(٥) المرجع السابق، ١١٢.

الشرق يزهو بكم والمغرب وكذا الزمان ليته بكم يطرب
والملك زالمجد والمفاخر والندى كل فخر على مجدك ينسب

وضمها السلطان إلى حاشيته ونالت اهتمامه واهتمام وزرائه(١)

وخلاصة القول نجد أن علاقة الوزراء بالأدب والأدباء كانت علاقة وثيقة أدت إلى ازدهار الأدب فى العصر الحفصى حيث تقرب الأدباء والعلماء إلى السلاطين والوزراء من كل النفوذ والجاه وكان للصراع بين الوزراء الحفصين والأندلسيين دور هام فى ازدهار الأدب الحفصى من أجل الوصل إلى أعلى المناصب السياسية، وكان لوزير الإنشاء دور كبير فى الحياة الأدبية حيث التنافس بين الكتاب الأدباء من أجل نيل هذا المنصب الرفيع وبلغت ذروة الازدهار الأدبى فى العصر الحفصى للنشاط البالغ والاهتمام والعناية من جانب الملوك والوزراء بالعلماء والأدباء والمفكرين والعطف عليه وإجلالهم بالمكان الأرفع وإسناد المهام والخطط العلمية والسياسية والوقوف على آرائهم الموفقة فى نصح السلاطين والوزراء، وكانت للدسائس بين الأدباء والوزراء دور فى نقل كثير بين وزراء الإنشاء والأدباء.

ونتيجة لحروب الأسبان والأتراك وغزوهم تونس الحفصية وهجرة أخر جيل من الأدباء والشعراء والعلماء، وموت كثير منهم فى الحروب ضد الغزاة خلت الحركة العلمية والأدبية من أى تقدم وازدهار بل اخفت كثيرًا من كتب التراث الحفصى.

(١) المرجع السابق، ص١١٤-١١٥.

obeikandl.com

الخاتمـــة

ومن خلال عرض الباحث لدور الوزراء في العهد الحفصي يمكننا أن نخرج بهذه الحقائق والنتائج وهي:

(١) أن الدار الحفصية مرت بأطوار مختلفة بين القوى والازدهار والضعف والانحلال ونتيجة لذلك تباين من خلالها دور الوزير بين التنفيذ والتفويض حسب قوة وضعف السلطان.

(٢) كان للوزراء الحفصيين دور هام في القضاء على الفتن والثورات التى اندلعت في وجه السلطة الحفصية أثناء قوة الدولة وسلاطينهم بينما قام الوزراء بتشجيع الخارجين على الدولة للقيام بالثورات في وجه السلطة الحفصية الضعيفة إبان أطوار الضعف والانهيار.

(٣) ارتبط السلطان الحفصي بوزيره بعلاقة قائمة على المحبة والاحترام لقرارات السلاطين العظماء الأقوياء، وأحيانًا صارت هذه العلاقة علاقة دموية تنتهي بالقتل لأن كثيرًا ما رفض سلاطين حفصيون استبداد وزرائهم بهم فكانوا يتخلصون منهم عن طريق القتل أو النفي خارج البلاد، وأحيانًا كثيرة سيطر الوزراء والحجاب على السلاطين الضعفاء إبان أطوار الانهيار والضعف.

(٤) لعب الوزراء الحفصيون دورًا في أخذ البيعة ووراثة العرش حيث استغلوا فترات ضعف السلطة الحفصية وانهيارها وقاموا بأخذ البيعة لمن يستطيعون السيطرة على مقاليد الحكم وموارد الدولة كما كان للوزراء الحفصيين دور هام في اختيار ولي العهد حتى في عهد السلاطين العظماء.

(٥) كان للوزراء دور هام وفعال في الحروب الداخلية سواء دفاعًا عن سلطانهم أو دفاعًا عن مصالحهم الخاصة من أجل البقاء على عرش السلطنة الحفصية إبان فترات الضعف والانهيار.

(٦) استخدام الوزراء جميع أساليب الغش والخديعة والساعيات من أجل الوصول إلى أعلى المناصب السياسية حتى لو كلف ذلك إراقة الدماء لأشخاص آخرين وقفوا منافسين لهم في عملية الحكم والسيطرة على السلاطين والضعفاء والصغار دون الحلم حتى يستطيعوا السيطرة على شئون الدولة المختلفة.

(٧) لعب وزراء الدولة الحفصية دورًا هامًا في العلاقات والحروب الخارجية مع الدول المغربية المجاورة لها من بني زيان وبني مرين من أجل السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي وميراث الموحدين، حيث قام الوزراء الحفصيون بأدوار سياسية مثل عقد معاهدات ومراسلات مع ملوك دول المغرب وأدوار اجتماعية مثل استخدام سلاح الزواج بين بني حفص وبني مرين الذي كان له أثر واضح في تدخل المرنيين في شئون الدولة الحفصية إبان فترات الضعف والانهيار.

(٨) اعتمدت العلاقات الخارجية للدولة الحفصية مع الدول المجاورة لها على مبدأ القوة والسيطرة، فنجد تابعية بني زيان وبني مرين للدولة الحفصية إبان فترات القوة والازدهار على العكس تمامًا من تبعية الدولة الحفصية للدولة المرينية واستيلاء بني زيان على أجزاء منها في فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين.

(٩) ازدهرت الحياة الاقتصادية بشكل كبير إبان فترات قوة الدولة حيث قام السلاطين العظماء ووزراؤهم بالعمل على تنشيط جميع مجالات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية على العكس من فترات ضعف السلاطين وسيطرة واستبداد الوزراء حيث الانهيار التام لجميع المجالات في ظل غياب واضح للسلطة الحفصية حيث انهار الاقتصاد الحفصي على الرغم من وجود بعض الوزراء الذين قاموا بعمل إصلاحات على جميع أصعدة الدولة الحفصية.

(١٠) ارتبط الوزراء الحفصيون بعلاقات مع العامة فأحيانا كانت هذه العلاقات طيبة وساروا بين الناس سيرة حسنة فأحبتهم العامة وتقربوا منهم، على العكس من ذلك فنجد أن العامة كانوا يكرهون الوزراء المستبدين كرهًا شديدًا بسبب ما أذاقوه لهم من ظلم وجور فنجد العامة يهجمون على منازلهم أثناء نكباتهم ويستولون على ما فيها من كنوز وأموال.

(١١) ظهرت عملية مصادرة الأموال لدى الوزراء في عهد الدولة الحفصية بسبب الغنى الفاحش للوزراء حيث استغلوا نفوذهم في جمع هذه الأموال فما كان على السلاطين إلا تصفية أموالهم ومصادرتها وقتل الوزراء أحيانًا.

(١٢) اهتم سلاطين الدولة الحفصية ووزراؤها بالأحباس فظلت تلقى برسالتها في أطوال القوة والازدهار، ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء وقلة الأموال وساءت وحالة البلاد المتدهورة وانهارت الأحباس

بسبب قيام الوزراء بالتسلف من أموال الأحباس مما أثر على دورها الاجتماعي فانهارت الأحباس ومعها انهارت المؤسسات القائمة عليها وانهار معها العاملون في الأحباس والمنتفعون منهم.

(١٣) ارتبط الوزراء الحفصيون بالصوفيين ارتباطًا شديدًا بسبب ما قدره سلاطينهم لهؤلاء الصوفيين أصحاب الكرامات فنجد منهم من يحتمي خوفًا من السلطان عند هؤلاء الصوفيين ولا يستطيع السلطان الحفصي القبض عليهم وهو في حمى الصوفيين، وهناك من الوزراء من حاول التطاول على الصوفيين والإساءة لهم ولكن بسبب قوة تأثيرهم الاجتماعي والسياسي فنجد معاملة حسنة لهم من الجميع

(١٤) أعطى سلاطين الدولة الحفصية ووزراؤها اهتمامًا كبيرًا بالأشراف وخاصة في أطوار القوة والازدهار على العكس من فترات الضعف والانحلال فنجد أن هناك الكثير من ادعى نسبه إلى الأشراف الحقيقيين ومستوى معيشتهم.

(١٥) أقبل بعض الوزراء على الاهتمام بالمنشآت العمرانية من مساجد وزوايا ومدارس وهذا يظهر لنا أن معظم وزراء الدولة كانوا يحبون العلم والعمران.

(١٦) لقى الأدب والأدباء عناية كبيرة من الوزراء الحفصيين وسلاطينهم على مراحل وأطوار الدولة الحفصية إلا أننا نجد أحيانًا عوامل الغيرة والحسد انتشرت بين الوزراء والأدباء بسبب ازدياد نفوذ الأدباء ومشاركتهم للوزراء في مناصبهم.

(١٧) اهتم السلاطين والوزراء الحفصيون بالحياة التعليمية وعملوا على تشجيع العلماء وأقاموا الأحباس على الأبنية والمؤسسات التعليمية وعلى المعلمين وقدروا لهم رواتبهم وكذلك حبسوا على طلاب العلم حتى يتفرغوا للتعليم فقط، على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث عانت تلك المؤسسات من الإهمال وهجرها المعلمون وطلاب العلم بعد أن تدهورت الأحباس وتقلصت موارد المؤسسات التعليمية بسبب الحروب والصراعات والتنافس بين السلاطين والوزراء.

(١٨) لا يمكننا إنكار دور الدولة الحفصية من سلاطين ووزراء في منطقة الغرب الإسلامي ودورها البارز في الأندلس وعلاقاتها المتميزة مع الدول الأوروبية مما جعلها أكبر دولة قامت على أنقاض الموحدين أكبر فترة زمنية ممكنة حتى استولى الأتراك عليها في آخر أطوار الضعف والانحلال.

obeikandl.com